كلكم مسؤول...

من أحاديث
سماحة المرجع الديني آية الله العظمى
السيد محمد تقي المدرسي دام ظله

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقِـمِ الصَّـلَاةَ لِدُلُـوكِ الشَّـمْسِ إِلَى غَسَـقِ اللَّيْـلِ وَقُرْآنَ
الْفَجْـرِ إِنَّ قُـرْآنَ الْفَجْـرِ كَانَ مَشْـهُوداً * وَمِـنَ اللَّيْـلِ
فَتَهَجَّـدْ بِـهِ نَافِلَـةً لَـكَ عَـسَى أَنْ يَبْعَثَـكَ رَبُّـكَ مَقامـاً
مَحْمُـوداً * وَقُـلْ رَبِّ أَدْخِلْـنِي مُدْخَـلَ صِـدْقٍ وَأَخْرِجْـنِي
مُخْـرَجَ صِـدْقٍ وَاجْعَـلْ لِي مِـنْ لَدُنْـكَ سُـلْطَاناً نَصِـيراً *
وَقُـلْ جَـاءَ الْحَـقُّ وَزَهَـقَ الْبَاطِـلُ إِنَّ الْبَاطِـلَ كَانَ زَهُوقـاً *
وَنُـنَزِّلُ مِـنَ الْقُـرْآنِ مَـا هُـوَ شِـفَاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِـينَ وَلَا
يَزِيـدُ الظَّالِمِـينَ إِلَّا خَسَـاراً﴾

سورة الاسراء: ٧٨-٨٢

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

ما أحوج الانسان المؤمن لخارطة طريق في حياته تهديه الى بناء حياة طيبة في الدنيا والى نيل رضوان الله تعالى في الآخرة.

وأفضل مصدر لخارطة الطريق هذه كتاب الله المجيد، وسنّة رسوله المصطفى وأوصيائه المرضيين، ووصايا أولياء الله والعلماء الصادقين.

في هذه الصفحات التي بين يديك - أيها القارئ الكريم - نقرأ بعض معالم هذه الخارطة من أحاديث سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي حفظه الله الذي ينير لنا درب الهداية إنطلاقاً من آيات الذكر الحكيم وسنة رسول الله وأهل بيته وسيرتهم العطرة عليهم أفضل الصلاة والسلام.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا واياكم للاستزادة من هذه المائدة الغنيّة، وأن يسدِّد خطانا في طريق الخير والسير على الصراط المستقيم.

إنه ولي التوفيق

مكتب المرجع الديني آية الله العظمى

السيد محمد تقي المدرسي دام ظله

رمضان المبارك - ١٤٤٧ هـ

كلمة البدء

بعد أن كادت ظلمات الجاهلية تبتلع الجزيرة العربية، بل العالم كله، وإلى الأبد، وإذا بنور الإسلام يشرق عليها ويجلي عنها الظلام الدامس، ويرفعها خلال فترة قصيرة من حضيض الجاهلية إلى قمة الحضارة الإنسانية على مرّ التاريخ، وكان ذلك بفضل المسار الإلهي الذي خطّه لها ربّ العزّة في كتابه العزيز، وتجلّى على يدي النبيّ الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ الذي كان ربّان ذلك المجتمع، وسائسه إلى تلك القمة.

ولكن، لو قارنا بين ماضي المسلمين وحاضرهم، بين أوج الحضارة وظلمات التخلف، يواجهنا سؤال مُلِحّ، وهو: كان المسلمون فئة قليلة، يقطنون الصحراء القاحلة، ويحملون الثقافة الجاهلية، فما سر التحوّل الذي نقلهم إلى القمم السامقة، ما الوسيلة التي جعلتهم خلال فترة قصيرة قادة العالم وروّاد الحضارة؟

الجواب: القرآن الكريم.

لأنه كلام الله المنزل على قلب النبي الأعظم ﷺ وهو دستور الإسلام، الذي كانت تعاليمه السبب المباشر، والسرّ العظيم في بناء تلك الحضارة العريقة. وما زال القرآن بين أظهرنا، وتعاليمه نفسها، والفرصة ما زالت سانحة لتحقيق تلك الأمجاد، بشرط أن تُطبّق آياته على الواقع المعاش، وحينها ستظهر لنا هذه الحقيقة جلية واضحة.

واليوم أيضاً، إذا عدنا إلى تعاليم القرآن، وقرأناها بتمعّن وتدبّر، ثم بحثنا عن مواضع تطبيقها في الواقع، سنغرس في أنفسنا – ان شاء الله- نفس الصفات التي مكّنت

المسلمين الأوائل من بناء الحضارة الإسلامية. ولكن بشروطها أيضا[1].

ذلك لأنَّ أي عملية تغيير كبرى لابد أن تقوم على أساسٍ متين، وعلى أشخاص صالحين قد استوعبوا ذلك الأساس وقادرين على قيادة المجتمع نحو تطبيقه كذلك.

وهؤلاء هم الرساليون، الذين يؤمنون بالرسالة، ثم يتحمَّلون مسؤوليتها بعد أن يكونوا قد بنوا شخصياتهم لتكون شخصية رسالية.

فالمؤمن الرسالي يُريد أن يتحمَّل مسؤوليته، ولكنَّه يعلم أنَّ الأمر صعب، يحتاج إلى أن يوفِّر في ذاته الصفات الضرورية، فلذلك يطلب من الله تعالى أن يعينه على ذلك، ويبحث عن المنهج المناسب له.

وسنركِّز على بيان تلك الصفات، وبعض طرق الاتصاف بها في الفصول القادمة بإذن الله.

١- يتحدَّث المرجع المدرسي في كتابات عدّة عن ضرورة الرجوع الى القران الكريم في سبيل تصحيح مسار الأمة الاسلامية وايجاد النهضة الاسلامية، بل ويبيّن آليات ذلك، راجع: رؤى في مسيرة العودة الى القران الكريم.

الفصل الأول:

ملامح الشخصية الرسالية

هل بناء شخصية الإنسان من صنع الله أم هو جهد بشري؟

وهل يولد البعض بامتيازات لا يولد بها غيره؟

وإذا كان على كل أحد منّا أن يكون رسالياً، فما هي تلك المقوّمات التي يجب توفرها لتحقيق ذلك؟

التكامل هدف الخلق

قبل الإجابة يجب معرفة حقيقة هامّة وأساسية تسبق هذه الأسئلة، وهي معرفة الهدف من وجود الإنسان، فما هو هذا الهدف؟

الجواب: الهدف هو بناء نفسه من أجل التكامل، وكسب المراتب التي تجعله مستحقاً لرحمة الله.

فالإنسان خُلِق من نطفةٍ أمشاج، قد تزاحمت فيه جوانب الخير وجوانب الشر، فتصارع فيه العقل مع الجهل، ولكلٍ جنوده.. فهو قد خُلِق من ضعف، لكن أودع الله في داخله طاقة يستطيع بها أن يتجاوز ضعفه وصولاً إلى الكمال.

وسبيل التكامل الوحيد هو استخراج طاقاته المودعة داخله، من خلال التحلّي بجملة من المؤهلات أو المقوّمات، والعمل الدؤوب المستمر على تزكية النفس وتجاوز نقاط الضعف المودعة فيها، حتى عدَّ رسولُ الله ﷺ ذلك (الجهادَ الأكبر)[1].

فما من شيء نحتاجه للنُمُوِّ والتكامل والتطور إلّا وأعطانا الله إياه، ويبقى علينا أن نستفيد مما أعطانا ونبني أنفسنا، لأنه سبحانه لن ينوب عنّا في ذلك، كما لا ينوب عن الفلّاح أن يحرث أرضه.

فبناء الشخصية هو الاستفادة مما وهبنا الله تعالى في تكامل شخصياتنا، فبناء الشخصية الرسالية هي من واجبات الإنسان، حيث عليه أن يبني نفسه ويزكّيها، ولكن ذلك لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى وبما أودع فيه من طاقات وامكانيات ومقومات.

فماهي تلك المقومات؟

١- لمزيد من التفصيل راجع كتاب (جهاد النفس) للمرجع المدرسي.

نبيِّن هنا مجموعة منها وهي:

الروح الإيمانية.

البصيرة النافذة.

الأخلاق الفاضلة.

الاستقامة على الطريق.

ثقافة المواجهة.

ثقافة الاستعداد.

أولا: الروح الإيمانية

قال تعالى:

﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[1].

وراء الآيات القرآنية حِكَمٌ بالغة، حكمٌ غايتها التأثير في النفوس، واستنقاذها من الجهالة، بشرط أن تُخطّ هذه القيم على الواقع، فتغيّر حياة الفرد، لتأخذ بيده نحو مصاف أولياء الله سبحانه، وعباده المكرمين.

فالقرآن الكريم لا يحدثنا عن أهمية الإيمان وصلابته فحسب، بل يخطّ لنا في آياته المنهج الصحيح للوصول إليه، وبناء الشخصية الإيمانية خطوةً بعد أخرى.

وفيما يأتي نستخرج جملة من البصائر من عبق الآيات الفواح، من سورة الإسراء المباركة، لتكون خطوات تجعلنا نكتسب الروح الإيمانية.

١- قيام الليل

إن القرآن الكريم قد أولى الصلاة اهتماماً كبيراً جداً، وفي سياق أحاديث متعددة حثَّ على إقامتها والاهتمام بها، وفي هذه الآيات نجد الأمر المباشر (اقِمِ الصَّلَاةَ)

١- سورة الإسراء، الآيات ٧٨-٨١.

والمطلوب هنا أداؤها بتمامها. ثمّ بعد ذلك يبيّن أوقاتها المفروضة بقوله تعالى: ﴿**لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ**﴾ وهذا النوع من الفرض والالتزام يصقل شخصية الإنسان بشكل كبير، بشرط أدائها في وقتها، وعدم تأخيرها، إلّا صلاة واحدة تُصلى في وقت متأخر من الليل، حيث لا يستيقظ إلّا من تعلّق قلبه بالله، وهي صلاة الليل، التي لا يُدرك السفر إلى الله إلّا بامتطائها، وهي ما عبّرت عنه الآية الكريمة: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً**﴾[١].

ولعل المقصود من التهجّد هنا هو مقاومة النوم، فالمؤمن الرسالي، يجعل لنفسه برنامجاً لقيام الليل، ولا تنقضي ليلته بالنوم فحسب، ومن هنا، أوصت أمّ النبيّ سليمان عليه السلام ولدها بهذه الوصيّة:

[إيّاكَ وَكَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ، فانَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَدَعُ الرَّجُلَ فَقِيراً يَوْمَ الْقِيامَةِ][٢].

فالمحروم من حُرِم قيام الليل، لما فيه من الثواب العظيم، وكما يقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: [إنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظاهِرُها مِنْ باطِنِها وَباطِنُها مِنْ ظاهِرِها يَسْكُنُها مِنْ أُمَّتِي مَنْ... صَلَّى بِاللَّيْلِ والنّاسُ نِيام][٣].

ربما يقال: لماذا نقوم الليل، مع أنها فترة راحة الإنسان؟ ألم يجعل الله الليل سباتاً، والنهار معاشاً؟

بلى.. لكنّ الإنسان يحتاج إلى ما يرفعه إلى ربِّه أيضا، لأنه مخلوقٌ فُضِّل على بقية الكائنات؛ فهو بحاجة إلى نافلة الليل، حتى يحقق أهدافه والتي منها يبعثه ربه ﴿**مَقاماً مَحْمُوداً**﴾، فمن هنا أقول لطلبة العلوم الدينية: «أدرسوا في النهار، واطلبوا العلم بالليل»، ففي النهار تجالس الكتاب، أما في الليل فتجالس الرب بالمناجاة والتضرع لطلب العلم.

قيام الليل وتقوية الإرادة

فائدة القيام بالأسحار تنعكس على شخصية المؤمن، بـ«اكتساب الإرادة»، ذلك

١- سورة الإسراء، الآية ٧٩.
٢- من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٥٥٦.
٣- الأمالي (للصدوق) ص٣٢٨.

لأن جانباً من عوامل الضعف في الإنسان هو (حبّ الراحة)، فكما يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: [اوَّلُ ما عُصِيَ الله بِسِتِ خِصالٍ: ... وَحُبّ النَّوْمِ][1].

فمن تجاوز ذلك عبر قيام الليل، قام بقطع شوطٍ كبير في طريق جهاد النفس، وقيام الليل يمثل الرياضة التي تقضي على خمول الروح وضعفها بفعل النوم الطويل، الذي به تخور القوة الروحية.

فالشخصية التي تقاوم سلطان النوم والراحة، تحوز نموّاً وقوةً في الإرادة، وبعد مقاومة النفس والانتصار الداخلي، تتوالى الانتصارات على الوسواس الخنّاس –ابليس– وعلى الطاغوت، فمن هانت عليه نفسه، وهي أعدى أعدائه، هانت عليه كل الصعاب، فلا يقف أمامه تحدٍ إلّا واجتازه.

وفي قيام الليل يتحقق الارتباط بالله القويّ العزيز، وعبر ذلك الارتباط يأتي التوكّل على الله، والاستعاذة به.

٢- مُدخل صدق

يقول تعالى: ﴿**وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ**﴾[2]، الإنسان المؤمن يطلب من الله سبحانه أن يقويه حتى يؤدي أعماله على أتم وجه، بل وينافس أفضل الموجودين من ناحية جودة العمل، بمعنى آخر: يؤدي كل عملٍ يحتاجه المجتمع، فالمؤمن يحتاجه الجميع، ولا يحتاج إلى أحد، وهو كما وُصِف في كتاب ربِّنا عزّ وجل: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ احَدُهُما ابْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ ايْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقيم**﴾[3].

وبالإضافة إلى القوة، يطلب المؤمن من الله سبحانه أن يبقى أداؤه بمستوى ثابت، وألّا تتلاشى قدراته، فالبقاء على القمة أصعب من الوصول إليها، من هنا يقول المؤمن: ﴿**رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً**﴾. ثمَّ يقول سبحانه:

١- المحاسن، ج١، ص٢٩٥.
٢- سورة الإسراء، الآية ٨٠.
٣- سورة النحل، الآية ٧٦.

﴿**واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً**﴾[1].

وهذه العبارة تعني: يا رب أريد منك القوة، والنصرة، والوصول لما أريد بقوة وثبات. وهذا ينبع من الهمّة العالية التي صوّرتها الآية الكريمة على لسان المؤمنين: ﴿**واجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إماماً**﴾[2]، فيصبح في الصفّ الأول من المتقين وهم القادة، ولا يرضى بأي حالٍ من الأحوال أن يبقى آخر الركب.. فهو يطمح أن يكون في مستوى يقتدي به غيره من الناس ممن يأتي بعده، كما اقتدى هو بمن سبقه.

ومثل هذه الروح جعلت المسلمين يتسامون ويتسامون حتى أصبحوا في قمة الحضارات الإنسانية آنذاك، حيث زرعت في المسلم همّة التسابق الى كل خير، بل للوصول الى القمة والبقاء فيها، فكانوا هم الدعاة إلى الدين في كل بقعةٍ من بقاع الأرض، وكانوا هم المضحين والمؤثرين غيرهم على أنفسهم طلباً لما عند الله تعالى.

في معركة أحد، وبعد انتهاء المعركة، جاء رجل الى النبيّ و قال: يا رسول الله، إن جرحى المسلمين عطاشى، هل تأذن أن آخذ الماء لهم؟ فأذن له النبي ﷺ، فلما وصل الى أرض المعركة، أراد سقاية أحد الجرحى، لكنَّه رفض وقال: يوجد من هو أحوج مني، فذهب الى الشخص الثاني، فقال له اذهب الى الثالث، وهكذا صار يدور بينهم ولا يرضى كل واحد منهم أن يشرب الماء قبل صاحبه، فلما وصل إلى الأخير أحاله الى الأول، فوصل اليه فوجده قد فارق الحياة، وكذلك الثاني والثالث و.. فماتوا جميعاً عطاشى، لأنهم: ﴿**يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[3].

فهذه الروح الإيمانية العالية يحصل عليها المؤمن عبر الارتباط بالله تعالى بعد أن يستمدّ العزم والارادة منه.

١- سورة آل عمران، الآية ٨.

٢- سورة الفرقان، الآية ٧٤.

٣- سورة الحشر، الآية٩. جاء في التاريخ أن الحارث بن هشام ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعياش بن أبي ربيعة ارتثوا يوم اليرموك فدعا الحارث بماء ليشربه فنظر إليه عكرمة ، فقال الحارث : ادفعوه إلى عكرمة ، فنظر إليه عياش بن أبي ربيعة ، فقال عكرمة : ادفعوه إلى عياش ، فما وصل إلى عياش ولا إلى أحد منهم حتى ماتوا وما ذاقوه) المستدرك على الصحيحين، ص٢٦٥، ج٤.

ثانياً: البصيرة النافذة

نطلب من الله تعالى في اليوم عشر مرات أن يهدينا الصراط المستقيم، لماذا؟ وما هي أهمية معرفة الصراط؟

لماذا نجد التأكيد في النصوص الشريفة على أنَّ المؤمن على بصيرةٍ من أمره، ليس هو فحسب، بل هو ومن يتبِّعه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

للجواب نقول: لا يكفي أن يملك الإنسان شعلة ايمانية عالية، لأنها قد تُصرف في اتجاه غير الاتجاه الصحيح، والتاريخ مليء بقصص الضالّين الذين لم ينفعهم حُسنُ نيّاتهم، ولم تنجهم طاقة ايمانهم من عواقب انحرافهم، بل عبَّر القرآن الكريم عنهم بأنهم (الأخسرين أعمالا): ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[2].

فهناك صراطٌ مستقيم، وعلى جانبيه سبلٌ كثيرة، وعلى كل سبيلٍ شيطانٌ يدعو اليه.

وقبال ذلك يمتلك المؤمن البصيرة، فالبصيرة بوصلة المؤمن، وهي التي تحدد مسيره وطبيعة سلوكه في هذه الحياة، ولأنه يمتلك البصيرة فإن دأبه التعمق في الحقائق، ولا يكتفي بظواهر الأمور. والبصيرة هي الخطوة الأولى نحو الاستقامة، ولهذا يردد دائماً: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3].

١- سورة يوسف، الآية ١٠٨.

٢- سورة الكهف، الآيتان ١٠٣و١٠٤.

٣- سورة الفاتحة، الآية ٦.

أما غير المؤمن فقد يخدع وقد يتبع هواه فيكون أمره فرطا، يتغيَّر سريعاً كتغيّر حركة الرياح، وتتناقض كلماته بتغيّر الأيام، بل في اليوم الواحد نفسه.

ولعلّ أجلى مصداق لهذا النوع من الناس هم الطغاة، فقد رأينا مثلاً تضارب تصريحات الرئيس الأمريكي، فلا يكاد يقول شيئاً إلّا ونقضه بعد مدّة، وكأنه يقف على أرض رخوة، بل ويطلق يومياً عشرات الوعود الفارغة، دون أن يستطيع الوفاء بها[١]، وهكذا تُقلّبه الأهواء من حال إلى حال.

ولأن الأهواء تسيطر على غير المؤمن، فهو ينكر الحقائق حتى وإن ظهرت ماثلةً أمامه، فقد لا ينكرها بلسانه، لكنّه لا يستطيع أن يستوعبها ويذعن لها، فهذا فرعون يرى بأم عينيه كيف انشق البحر اثني عشر طريقاً، وكيف يبست الأرض تحت أقدام موسى عليه السلام ومن معه، إلّا أن غروره وهواه غلبا عقله، فأصرّ على اللحاق بهم، متنكّراً لكل تلك المعاجز، فصار عبرةً لمن اعتبر.

ومثل فرعون، كلُّ طاغيةٍ وظالم، لا يعتبر بمن سبقه ويصرّ على طريق الاجرام، وأما النهاية فواحدة: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾[٢].

وبكلمة: إن مواقف أتباع الشيطان تنبع من الأهواء، ما يجعل قراراتهم غير سليمة، ولذلك يقول تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[٣].

الخوف من الله مفتاح البصيرة

من مفاتيح البصيرة الخوف من الله تعالى، فحين يتذكر الإنسان ربّه، ويستشعر أمر خالقه بأنه المهيمن على السماوات والأرض، يعلم ما في البر والبحر، ويده فوق يد عبده، ومن خاف من الله أخاف الله منه كل شيء، حتى الطغاة.. حين يستذكر تلك الحقائق، يرى الواقع بصورة مختلفة.

ثُمَّ إن معرفة الإنسان محدودة، فكيف له أن يتجنب خطراً لا يحيط به علماً؟ إنّ

١- فقد رأينا كيف وعد بإنهاء الحرب الروسية الأوكرانية في اليوم الذي يتسلم المنصب الرئاسي فزاد في تمويل الحرب، كما وعد بوقف الحروب الأمريكية فشارك في الحرب على الجمهورية الاسلامية في ايران، و هدّد فنزويلا وغير ذلك.

٢- سورة الشعراء، الآية ٢٢٧.

٣- سورة النازعات، الآيات ٤٠-٤١.

السبيل إلى ذلك هو أن يُسلِّم أموره إلى الله سبحانه، فهو بكل شيء عليم.

ويمكننا الاستفادة من بعض الأحداث كشاهد واقعي على حقيقة أن الله عزّ وجل كافٍ عبده، حتى في الأمور التي لا يحيط بها العبد علماً.

فعلى سبيل المثال، سعت أمريكا إلى التواصل مع حركة حماس لإيقاف إطلاق النار، وحُدّد موعد اللقاء في قطر، لكنها كعادتها خانت العهد، فأُبلِغت إسرائيل بتفاصيل الاجتماع لتتمكن من اغتيال قادة حماس. غير أن المشيئة الإلهية شاءت أن تُحبط مؤامرة المجرمين، فبينما كان القادة يستعدّون للقاء، ارتفع صوت المؤذن داعياً إلى الصلاة، فقاموا لأدائها في مكان آخر، وفي اللحظة نفسها أطلقت الطائرات الإسرائيلية صواريخها على المبنى الذي كانوا فيه قبل ذلك، فنجا القادة، وأُصيب المكان لا غير.

فالقرار النهائي بيد الربّ سبحانه، وإذا أيقن الإنسان بذلك؛ فإن حبل الهوى ينقطع، ويسير في درب الحق، أما حين يبقى أسيراً لغرائزه، فانه يحكم بالعمى على قلبه، وحينئذٍ سيتصرف بعواطفه، والعاطفة نتائجها غير محمودة.

ثقافة القطيع تمنع البصيرة

المحدّد الأساسي لسلوك الإنسان المؤمن، والموجّه الأساسي له ومنطلقاته، والدافع الأولي لكل تحركاته وسكناته، هو البصيرة، ولا شيء آخر. فهو لا يدع شيئاً أو شخصاً أو جماعة ينوبون عنها، ليدفعوه في الاتجاه الذي يريدون.

ولو أجمع الناس على رأيٍ غير سليم، فلا يكون لإجماعهم أثرٌ على رؤية المؤمن، فلو زيَّنوا قبيحاً، أو استقبحوا واجباً، أو جعلوا المعروف منكراً ، أو المنكر معروفاً، فلا يغيِّر المؤمن موقفه، فهو لا يرى أن الحشر مع الناس – ولو إلى جهنَّم– عيد!

وقد نهت الروايات الشريفة عن أن يكون الانسان تابعاً لموقف الآخرين، فقد قال الامام الصادق عليه السلام لرجل من أصحابه: [لَا تَكُونَنَّ إِمَّعَةً، تَقُولُ: انَا مَعَ النَّاسِ وَانَا كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ][1].

فالمؤمن يعلم، أنَّه حتى لو اتخذ من موقف الآخرين مبرراً لأفعاله، فإن ذلك لن يحمل

١– معاني الأخبار، ص٢٦٦.

عنه وزرها، ولن يبعد عنه حقيقة أنّه مسؤول عن كل فعل وقول صدر عنه، ولن يتحمل أحد وزره نيابةً عنه، حتى القطيع الذين سار خلفهم. يقول عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ اعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

فلكل كتابه الذي أحصى كل أعماله، ولا يمكن أن تختلط هذه الكتب مع بعضها، فكل إنسان سيوفّى ما عمل هو، لا ما عمل غيرُه، لأن الذي وضعها هو عليم خبير بكل شيء.

والحشر مع الناس ليس عيداً، بل هو في الدنيا غفلة وخسارة، وفي الآخرة عذاب شديد، ولذا يعترف أهل جهنَّم على أنفسهم بذلك قائلين: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[1].

فمن أجل البصيرة يجب أن يمتلك الانسان الإرادة الكافية في مواجهة التيّار العام في المجتمع وأن يفكر باستقلالية.

الوعي بالواقع

هناك صفة أساسية جداً تتعلق بالمؤمن بشكل مباشر، وتؤثر على سلوكه ومواقفه، وهي «الوعي»، فالاطلاع على أحوال العالم، وخصوصاً البلد الذي يعيش فيه أمرٌ في غاية الأهمية، ولا يمكن تركه بأي حالٍ من الأحوال، ويزداد وجوباً على طلبة العلوم الدينية بشكل خاص، لأن عليهم الجزء الأكبر من مسؤولية اصلاح الواقع، وحل مشاكل الأمة الإسلامية. وأول خطوة لإصلاحه هي معرفة أحواله بالتفصيل، لمعرفة إيجابياته وتعزيزها، وتشخيص السلبيات ومحاربتها، واقتلاعها إن أمكن ذلك.

وهذه المعرفة يجب أن تشمل جميع جوانب البلد، الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، والسياسية. وأساساً إن من اهتمامات عالم الدين المهمة «الإلمام بالسياسة»، فالسياسة لها الارتباط الوثيق بواقع الحياة، لذا جاء في الرواية: [الْعَالِمُ بِزَمَانِهِ لَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللَّوَابِس][2].

١- سورة المدثر، الآية ٤٥.

٢- الكافي، ج١، ص٢٧.

ثالثاً: الأخلاق الفاضلة

حين برز عليّ الأكبر عليه السلام إلى الميدان، رفع الحسين عليه السلام صوته قائلا: [اللهُمَّ اشْهَدْ عَلَى هَؤُلَاء الْقَوْمِ، فَقَدْ بَرَزَ إِلَيْهِمْ غُلَامٌ اشْبَهُ النَّاسِ خَلْقاً وَخُلُقاً وَمَنْطِقاً بِرَسُولِك][1].

لو تأملنا هذه الكلمات لوجدناها خارطة طريقٍ لنا، ومع أنّ الواحد منّا لا يمكن أن يكون شبيهاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «خَلقاً»، إلا أنّ الأمرين الآخرين: [خُلُقاً وَمَنْطِقاً] يمكن السعي من أجلهما عبر الاقتداء به.

فمن ناحية خُلُق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصفه ربنا في قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[2]، فالإنسان لابد أن يكون شبيهاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففي حياته ومواقفه يقتدي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو لنا أسوة حسنة، فمن منّا لا يريد أن تكون في شخصيته نفحة إلهية؟ ومن منّا لا يحبّ أن يكون هو أيضا مثالاً للخلق الفاضل؟

والاقتداء، ان كان حسناً لعامة المؤمنين، فهو ضرورة للعلماء الفضلاء، وللمؤمنين الدعاة إلى الله تعالى، ذلك لأنّ الأنبياء هم قادة البشر، فإن التخلّق بأخلاقهم يعني اكتساب صفة أساسية من صفات القائد الربّاني، الذي يكون حجّة على غيره، وهذا ما قال عنه تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾[3]. والشهداء هم القادة الذين عُبّر عنهم في آية أخرى بـ(أولوا بقية)[4]، وهو نفسه دور النبيّ الأكرم

١- بحار الأنوار، ج٤٥، ص٤٢-٤٣.

٢- سورة القلم، الآية ٤.

٣- سورة البقرة، الآية ١٤٣.

٤- (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) [سورة هود، الآية ١١٦].

في أمّته، حيث يقول عزّ وجل عنه: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1]. ونحن كمسلمين علينا أن نكون كذلك، حتى لو كان صعباً فلا مانع ولا مناص من المحاولة.

إذن، على العالِم أن يتخلّق بأخلاق النبيّ ﷺ، وكما يقول ﷺ: [عُلَماءُ أُمَّتي كأنبياءِ بني إسرائيلَ][2]، فأي مقام ذاك الذي يصل اليه الانسان فيصبح شبيهاً بأنبياء بني اسرائيل؟

ولتلك الأخلاق تجليات مختلفة، يمكن أن نبيّن لها مصداقاً:

يتعرَّض المؤمن لمواقف مختلفة، وقد يتعرَّض للسبّ، أو الاتهام، أو قول الزور، فكيف يتصرَّف؟ هل يردّ الإساءة بمثلها؟ أم أنَّه يترفّع، فلا ينزعج بقولِ الزور فيه، ولا يفتّ السبّ أو الاتهام في عزيمته، بل ويرى الاساءة لغواً، يطبِّق فيها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[3].

فالمؤمن لا يُخدع ، ولا تشغله التوافه، لأنها أصغر من أن تتمكن منه، وهو أكبر من أن يدنو منها، ولذلك: [مَا هَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِه][4] كما قال النبي ﷺ.

فالأخلاق الفاضلة ليست أمراً ثانوياً في شخصية المؤمن، بل هي محور تلك الشخصية والتي تؤهلها لكي تؤدي دوراً كبيراً في هذه الحياة، ويرتفع ليمثل دور الأنبياء في قيادة المجتمع.

فنحن اليوم بحاجة إلى قادة حقيقيين يمثلون دور الأنبياء، وإلى علماء يمثلون دور النبي الأكرم ﷺ، ليقودوا الأمة نحو الصلاح الحقيقي، ويتعالوا فوق كل الحزبيات والمحسوبيات، وبدل ذلك يجعلون الهدف الحقيقي لهم هو استقامة الأمة على الصراط المستقيم، للوصول إلى ما أراده الله سبحانه وتعالى.

١- سورة البقرة، الآية ١٤٣.
٢- مختصر الفوائد، ص٦٥٢.
٣- سورة الفرقان، الآية ٧٢.
٤- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، ص٢٤٥.

رابعاً: الاستقامة على الطريق

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُون﴾[1].

إن أعظم وسام يشرّف الله تعالى به الانسان هو وسام الاستقامة؛ لأنها درجة رفيعة لا ينالها إلا قليل من الناس.. فالعلم والعمل به، والاخلاص في سبيل ذلك، كلها أمور صعبة، إلا أنَّ الأصعب هو البقاء على ذلك حتى آخر لحظة وعدم الانحراف بتقلبات الدنيا وفتنها. أ لم يقل رسول الله ﷺ : [الْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ هَلْكَى إِلَّا الْعَامِلُونَ، وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ هَلْكَى إِلَّا الْمُخْلِصُونَ، وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَر][2].

فحتى المخُلِص يكون على خطرٍ، إذ لا يُعلم بمَ يُختم له! فلا يدري هل سيموت مؤمناً أم ينحرف قبل وفاته، وقد حكى الله تعالى وصيَّة الأنبياء عليهم السلام لأبنائهم:

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون﴾[3].

وهذا هدف عظيم يجب أن يتبناه الإنسان في حياته؛ وهو ان يحرص على ان لا يموت إلّا وهو مسلم، لأن الحصول على الجنة هو أعظم الأهداف، وهذا الهدف لا يمكن أن يتحقق إلّا بعد أن تُختم حياة الإنسان بالحسنى، وشرط ذلك (الاستقامة).

وجوهر الاستقامة هو أن المؤمن يضع ما يريده الله تعالى نصب عينيه، فيتغافل بعدُ

١- سورة فصلت، الآية ٣٠.

٢- مجموعة ورام، ج٢، ص١١٨

٣- سورة البقر، الآية ١٣٢.

عمّا دونه، فلا تهمّه زينة الحياة الدنيا، ولا تفتنه تقلّباتها، بل يسلك الطريق المستقيم الذي يوصله إلى رضوان الله تعالى، وذلك يحتاج إلى الإخلاص.

ولكن كيف نحقق هذا الهدف الكبير، أي الاستقامة بعد الإيمان؟

يكون ذلك بالخطوات التالية:

١- تجنّب الظالمين

يقول تعالى: ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾.

يحذّرُ ربّنا سبحانه من الركون إلى الفئة الباغية والظالمة، لأن عاقبة ذلك هي «الخسران المبين» فيهوى التابع والمتبوع في النار.

وتضيف الآية الكريمة: ﴿**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ اوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ**﴾[١]، فمن اتخذ عدو الله وليّاً له فلا ناصر له ولا معين، وعاقبته النار.

ورغم اتّباع الظلمة الذي ينهى عنه الرب، فانهم يتبرؤون من أتباعهم يوم القيامة: ﴿**إِذْ تَبَرَّا الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَاوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْاسْبابُ**﴾[٢].

٢- إقامة الصلاة

ثم يقول تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ**﴾[٣].

لا يوجد أحد يعيش حياةً مثالية، فلكل إنسان منغّصه الذي يؤثر على صفو عيشه، والمؤمن كغيره، قد تغرّه الحياة بزينتها، أو تشغله أحداثها فيسهو ويغفل عن هدف خلقته، فيتراجع عن الاستمرار، أو يقل نشاطه ، فهنا يحتاج إلى ما يستعيد به نشاطه، ولذلك فرض الله الصلاة في هذه الآية، ثم بيّن الحكمة من هذا الفرض في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾[٤].

فالصلاة صلة العبد بربّه، وهي التوجّه والخضوع الذي يستدعي خشوع القلب،

١- سورة هود، الآية ١١٣.

٢- سورة البقرة، الآية ١٦٦.

٣- سورة هود، الآية ١١٤.

٤- نفس الآية.

فيطهّره ويحييه كما تحيي الأرض بالماء النازل من السماء، وهذه الصلوات - التي بيّن أوقاتها أنّها في طرفي النهار وزلفاً من الليل - لعلّها تكون الحسنات التي تطرد السيئات من القلب، وكلّما ابتعد عن الطريق أرجعته، ليبقى بذلك مستقيماً دائماً، وطوال اليوم.

٣- الصبر

ومن أجل الاستقامة يحتاج المؤمن - أيضاً - إلى الصبر. يقول تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾، ومن معاني الصبر هو انتظار الفرج، لذا يقول تعالى: ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[١]، و﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[٢]، فالاستقامة دون صبر تشبه جسداً بلا روح، أو قلما بدون حبر.

أما نتائج الصبر وعقبى الصابرين فنقرأها في الآيات التالية:

- ﴿**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الارْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[٣].
- ﴿**الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَاقَامُوا الصَّلاةَ وَانفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[٤].
- ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[٥].

٤- التواصي ركيزة الاستقامة

من الركائز الأساسية التي يحتاجها المؤمنون فيما بينهم ليستقيموا هي ركيزة «التواصي». فمن أجل أن يحافظ المؤمنون على استقامتهم يجب على كل فرد منهم أن

١- سورة البقرة، الآية ١٥٣.
٢- سورة آل عمران، الآية ٢٠٠.
٣- سورة الأعراف، الآية ١٢٨.
٤- سورة الرعد، الآية ٢٢.
٥- سورة الأنفال، الآية ٤٦.

يصنع بيئة إيمانية وأجواء دينية، من خلال التواصي بالخير بينه وبين الآخرين.

ومن مصاديق التواصي، صناعة الواقع الإيماني، فمثلاً: حين يذهب طالب الحوزة إلى الدرس، لا يكتفي أن يحتفظ بذلك العلم وما اكتسبه من خير في الحوزة لنفسه، بل يقوم بإخراجه على أرض الواقع بإيصاله إلى من حوله، ليصنع بذلك الأجواء الإيمانية التي تعينه على الاستقامة. ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[١].

١- سورة العصر، الآية ٣.

خامساً: المسؤولية وثقافة التصدّي

يقول تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الارْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[١].

يعتبر (فَلَوْلا) في اللغة العربية حرف امتناعٍ لوجود شيء، ولعلّ دلالتها في هذه الآية تكون: (لماذا لا يوجد؟) مما يفهم منها أنّ رب العزّة ربما يريد القول بأنه لابد من أن يؤدي المؤمن دوره في إصلاح ما فسد من المجتمع، من خلال تذكير الناس بالله سبحانه وتعالى، لأنه ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

ويلزم من هذا بألّا يقف أحدٌ على التل، فثقافة الحياد بين الحقّ والباطل ثقافة جاهلية، و هي سبب من أسباب انتشار الباطل وافساده للمجتمع من داخله، لأن العناصر الايجابية الصالحة التي تستطيع أن تكافح الفساد، وتكبح جماح الباطل من أول لحظة، تتقاعس عن أداء دورها، وتتحوَّل إلى دور الباحث عن المصلحة ولو كانت على حساب الحق. أ لم يقل قائلهم: [الصلاة خلف علي أتم، وسماط معاوية أدسم، وترك القتال أسلم][٣].

ينقل عن بعض المؤرخين لحادثة عاشوراء: أن جماعة من أهل الكوفة اتخذوا موقفاً محايداً، فهم لم يقاتلوا مع الإمام الحسين عليه السلام ولا وقفوا ضده، إنما اكتفوا بالصعود على

١- سورة هود، الآية ١١٦.

٢- سورة الذاريات، الآية ٥٥.

٣- جاء في: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للعماد الحنبلي، ج١، ص٦٤: وكان أبو هريرة يصلي خلف علي ويأكل على سماط معاوية ويعتزل القتال

ويقول: «الصلاة خلف علي أتم، وسماط معاوية أدسم، وترك القتال أسلم».

التل يبكون على الإمام الحسين عليه السلام ويدعون الله أن ينزل نصره عليه!

فهذه ثقافة خاطئة، أما الجانب الصحيح فهو (المسؤولية). إنَّ المجتمع بحاجة إلى إصلاح مستمر[1]، وحين يؤدي المؤمن مسؤوليته في الوقوف مع الحق والنهي عن الفساد، وتذكير الناس بالله عزّ وجلّ ينصلح المجتمع، وتشمله رحمة الله تعالى، أما إذا لم يتصدَّ المؤمنون للفساد نزل بالمجتمع العذاب. يقول الله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَاهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾**[2]. لذا فإن مقياس التقدم في الأمة، هو: «وجود المصلحين».

وبكلمة: مهما كانت الصعوبات مُلحّة، والظلام حالكاً، فالمؤمن يبقى ثابتاً مصرّاً على الدعوة إلى الحقّ.

ويكفينا قصة حبيب النجار الذي يقول الله تعالى عنه: **﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ اجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾**[3]، فأصرّوا على قتله، ولم يكتفوا بذلك؛ حتى احرقوه ونثروا رماده في البحر. وعندما صار في عالم البرزخ **﴿قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ﴾**[4]، فـ: **﴿قَالَ يَا لَيتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ﴾**[5]، وهو هناك لم يفتأ يذكر قومه بخير، ويتمنى لهم الخير. حقاً صاحب القلب النقي يسع العالم، بينما القلب الملوث يضيق بصاحبه.

وكلما كان الانسان أكثر علماً، كانت مسؤوليته أكثر.. فالذنب ذنبٌ سواء صدرَ من العالم أم الجاهل، لكن ورد في الحديث الشريف: [يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنْباً قَبْلَ انْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحد][6]. بل قد ورد أن العالِمَ إذا لم يؤدِّ دوره الصحيح، يتحمَّل وزرَ عمل غيره أيضا.

يقول حارث بن مغيرة، لقيني الإمام الصادق عليه السلام في بعض طرق المدينة، فقال لي:

١- يمكن مراجعة فصل (قيم التقدم في المجتمع الاسلامي) في كتاب (المجتمع الاسلامي) للمؤلف للحديث عن اهمية الاصلاح المستمر في المجتمع وشروطه.

٢- سورة هود، الآية١١٧.

٣- سورة يس، الآيتان ٢٠و٢١.

٤- سورة يس، الآية ٢٦.

٥- سورة يس، الآيات ٢٦-٢٧.

٦- الكافي، ج١، ص١١٥.

[أَمَا لَاحْمِلَنَّ ذُنُوبَ سُفَهَائِكُمْ عَلَى عُلَمَائِكُمْ]!

ثم تركني ومضى، فجئت واستأذنت عليه، فقلت له: لقيتني، فقلتَ لأحملنَّ ذنوب سفهائكم على علمائكم، فدخلني من ذلك أمر عظيم.

فقال عليه السلام: [نَعَمْ، مَا يَمْنَعُكُمْ إِذَا بَلَغَكُمْ عَنِ الرَّجُلِ مِنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ وَمَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا بِهِ الْاذَى انْ تَأْتُوهُ فَتُؤَنِّبُوهُ وَتُعَذِّلُوهُ وَتَقُولُوا لَهُ قَوْلاً بَلِيغاً]؟

فقلتُ [له]: جُعلت فداك، إذاً لا يطيعونّا ولا يقبلون منا.

فقال عليه السلام: [اهْجُرُوهُمْ وَاجْتَنِبُوا مَجَالِسَهُمْ].[1]

وهكذا يربّي العالم نفسه على ثقافة المسؤولية، ويتحرك في سبيل الاصلاح.

بين التصدّي والتبرير

يفرّ البعض من التصدّي فراره من الوحوش الكاسرة، بل الموت أهون عنده من التصدّي لمسؤولياته! بينما يبني المؤمن نفسه على تحمل المسؤولية والتصدّي والمواجهة.

يروى أنه حين جاء أبرهة الحبشي عازماً على هدم الكعبة، صادر جيشه في أطراف مكّة بعض الإبل لعبد المطلب عليه السلام جدّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقول الرواية التاريخية: جاءه عبد المطلب عليه السلام وطلب منه أن يردَّ له إبله، فاستجاب له، وحين بيّن أبرهة تعجّبه في ذلك الطلب، قال عبد المطلب عليه السلام قولته المشهورة: [انَا رَبُّ الْإِبِلِ وَلِهَذَا الْبَيْتِ رَبٌّ يَمْنَعُه][2].

وقد فُسّرت هذه القصة تفسيرين:

الأول: إنَّ عبد المطلب عليه السلام أعلن عن تخلّيه عن واجب التصدي، بل برّر موقفه بأنّه ما دام الله تعالى قد تكفَّل بالحماية فليس من واجب الانسان الدفاع عنه، وهذا التفسير ألبس الحدث التاريخي وكلام عبد المطلب عليه السلام جُبّة التبرير، حتى يرتديها بدلاً من تحمل المسؤولية، لكنّ هذا التفسير غير مقبول.

الثاني: وهو بالعكس تماماً من الأول، يرى أن المواجهة جزء لا يتجزأ من مسؤولياته،

١- الكافي، ج٨، ص١٦٢.

٢- الكافي، ج١، ص٤٤٧.

فلا يتقاعس ولا يتوانى أبداً عن نصرة الحق، ونصرة المظلومين.

فعبد المطلب عليه السلام أرسل لأبرهة رسالة وعيد، وهي أنَّه (ربّ الإبل) وراعيها ويؤدي دوره في رعايتها، وكذلك فإن ربّ البيت يحمي بيته، وكان ذلك محاولة منه لصرف أبرهة عن الهجوم على البيت[١].

والسؤال اليوم: أيّ الثقافتين نحن نحملها؟

فالبعض يتهرّب من المسؤولية، ثم يحاول أن يُلبِس فراره ثوب الشرع فيُؤَوِّل النصوص الدينية بناء عليه، ويبرّر به الركون إلى الجمود والراحة، ومن بين ثنايا هذه الثقافة التكاسلية، انتشر الخمول بين المسلمين، وشاع السكوت عن الظلم، فلا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر، وبالمقابل ظهر التسليم للباطل، واتّباع الظالمين.

وفي الجهة الأخرى هناك ثقافة العمل والتصدي، فإذا رجعنا إلى ثقافة القرآن الكريم، نجد أن الربّ سبحانه – على العكس – يؤكد على عمل المؤمنين، لكي يتحقق النصر، كما يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ**﴾[٢]، فإذا وجد جيش الحق؛ انتصر المسلمون، وانهزم المبطلون.

وعلى المؤمنين أن يفكروا جيداً بمستقبلهم، فإذا أرادوا مستقبلاً مشرقاً ينبض بالعزّة، فعليهم نصرة الحقّ، نصرة الله، ليرزقهم العزّة. أمّا إذا تركوا ذلك وسلّموا أمرهم للظالمين، فإن مستقبلاً أسودَ مكتظّاً بالذل والهوان ينتظرهم.

وحين نتحدث عن الواقع الحاليّ، فإنّهم بين خيارين أمام التحديات الكثيرة التي تعصف بالأمة ومنها تحديات الأعداء الذين يريدون اخضاعنا:

الأول: الجهاد، كما فعل المؤمنون المجاهدون.

الثاني: الخضوع للظالمين، بل ربما مساعدتهم على أذى المؤمنين!

ولا مناص من الخيار الأول، وخصوصاً أننا نملك كل ما يلزم لمقارعة الظالمين، ولا ينقصنا شيء.

١– ولم يقم عبد المطلب بهذه الخطوة الا بعد ان تخاذلت قريش و تخلّت عن مسؤوليتها في الدفاع عن حرم الله الآمن.

٢– سورة محمد، الآية ٧.

سادساً: ثقافة الاستعداد

قال تعالى: ﴿وَلَوْ ارَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[1].

لكل عمل مقدّماته الخاصة، ويعتبر الرجل عاملاً من اللحظة التي يبدأ بتهيئة المقدمات الضرورية له.. وكلما كان العمل أكبر وأخطر كانت مقدماته أكثر وأبعد.

فالتعلّم طريق الوصول الى العلم، والعلم مقدّمة للعمل، فمن لا يتعلَّم لا يعمل، كما أن للعمل مقدمات أخرى أيضا، فالمهم أن نعرف أن تهيئة المقدمات جزء من العمل، بل – في كثير من الأحيان– هو الجزء الأكبر منه، ولذا نجد القرآن الكريم ينفي صفة العمل عن الذي لم يستعد بتوفير المقدمات – قائلا: ﴿وَلَوْ ارَادُوا الْخُرُوجَ لاعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ فكأنَّ الفارق بين أصحاب الأهداف الكبيرة وأصحاب الأماني الفارغة هو الاستعداد.

اغتنام فترات الرخاء

إنَّ فترات الرخاء والهدوء فرصة ذهبية علينا استثمارها بالاستعداد للأوقات الصعبة، وذلك حين يشتد الوطيس وتقرع طبول المواجهة، لنكون بمستوى وعدّة كافية للخروج من الأزمة وتحقيق الانتصار ضدّ العدو. وهذا ربما هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ارَادُوا الْخُرُوجَ لاعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ فالتأخير والتهاون خسارة لا نراها، مثل رمادٍ أحاط بقطع

١- سورة التوبة، الآية ٤٦.

النيران الكبيرة، ومن هنا، فمع التحديات المتزايدة التي نراها في الأمة، إذا لم يحصل التطور في الأمة الإسلامية في مجال الاستعداد فهي إلى التراجع أقرب.

فالاستعداد في كافة اتجاهاته جزء لا يتجزأ من المواجهة والتصدي، ومن لا يفكر بالاستعداد لا يفكر بالمواجهة أيضاً، ومن أراد أن لا يقع ضحية الغفلة التي يستغلّها الأعداء للنيل منّا، يجتهد في الاستعداد، لأنه يعلم أنَّ من نامَ لم يُنَم عنه.

ومن هنا، كان من واجب المؤمن الرسالي بصورة عامة، والعلماء بصورة خاصة، تهيئة أنفسهم لأداء مسؤولياتهم والاستعداد المسبق لها، سواء كان ذلك في تبليغ الدين ودعوة الناس الى الله، أو في مواجهة الطغاة والمستكبرين، أو في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

الاستعداد المتناسب مع الزمان

لكل زمان خصائصه، ولكل زمانٍ وسيلته المتناسبة معه، ومن مسؤوليات الانسان المؤمن الرسالي، والعالم العامل، معرفة الزمان وما يناسبه من الوسائل. والأمر يرتبط تارةً بنوع العمل، فقد يتطلَّب الزمان المواجهة العسكرية، وقد يتطلَّب المواجهة بالكلمة والقلم وتحريك وعي الجماهير. وتارة يكون بوسيلة العمل، ففي زمانٍ كانت الخطابات المباشرة على المنابر تُلهِب المشاعر وتنير العقول، وفي زمانٍ آخر يتفاعل الناس مع الفضائيات وبرامجها، وفي آخر يكون عصر النت والذكاء الاصطناعي و.. وهكذا تختلف الوسيلة ويبقى الجوهر والمحتوى واحداً، والهدف هو التأثير على أكبر قدر ممكن من الناس.

وينبغي الاستفادة من آخر المستجدات لزيادة التأثير، فاذا كان كتابة وطباعة الكتاب ونشره في السابق يحتاج الى جهدٍ ووقتٍ وثمنٍ كبير، أما اليوم نجد أنَّ ذلك أيسر بسبب توفير الوسائل المناسبة، وإمكانية النشر الإلكتروني، فهذا يعني أن يجتهد الانسان أكثر في التأليف والكتابة.

وكذلك نجد اليوم تأثير البرامج المسجلة والحوارات الطويلة (بودكاست) أو التدوين

الصوتي حيث يصل مشاهدو بعضها الى ملايين الأشخاص، فهذا يعطي للمؤمن الرسالي الدافع المناسب للدخول في هذه المجالات، مع عدم التقصير في طلبه للعلم واجتهاده في الاستفادة من كتاب الله عزوجل.

ولا يقتصر الاستعداد على جانب واحد، بل يعدّ المؤمن ما استطاع من قوّة، فالاستعداد المالي، والبدني، و.. كلها مطلوبة.

الاستعداد بعلاج السلبيات

ومن صور التهيئة الذاتية: رفع السلبيات، ففي طريق أداء المسؤوليات عقباتٌ، وهناك نواقص لابد من رفعها، ولصعوبتها كانت الحاجة الى التضرّع الى الله تعالى فيها، كما فعل النبي موسى عليه السلام حين كلّفه الله تعالى بحمل الرسالة الالهية، فقال: ﴿**رَبِّ إِنِّي اخَافُ انْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَارْسِلْ إِلَى هَارُونَ**﴾[1]. وهنا قد ركّز على المعوقات التي يواجهها في طريق الدعوة. والله يذللها أمام عبده ليصدح بالرسالة الحقّة.

وقال أيضاً: ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي امْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ اهْلِي * هَارُونَ اخِي * اشْدُدْ بِهِ ازْرِي**﴾[2]. وهذه الطلبات ليست مجرد تيسيرٍ لأمره فحسب، بل هي ضروريات رسالية.

كيف ذلك؟

الجواب:

١- ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي..**﴾ اجعل صدري واسعاً شرحاً لا أهيب الصعاب التي قد تواجهني في الطريق، إني أعلم بأن حمل الرسالة عملية صعبة، لذلك فأنا أحتاج إلى صدر يسع كل مشاكل التبليغ.

٢- ﴿**وَيَسِّرْ لِي امْرِي**﴾ لعلّ موسى عليه السلام كان يرى أن فرعون يصعّد الموقف مما يدفع

١- سورة الشعراء، الآيات ١٢-١٣.

٢- سورة طه، الآيات ٢٥-٣١.

بموسى عليه السلام إلى التصعيد أيضاً، خصوصاً وأن موسى عليه السلام كان مشهوراً بالغضب في الله، فكان يريد أن تمشي المسائل بهدوء بدون الحاجة إلى العنف.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنّ موسى عليه السلام كان يدرك خطورة وصعوبة المسؤولية على عاتقه، فكان يريد التيسير في أموره، ورفع الثقل جراء حمله الرسالة.

هذا إذا علمنا أن الإنسان الذي يحمل هموماً كثيرة بسبب عمله لن يفلح أثناء عمله، لأنّ الهم والإحساس بثقل العمل يثبط الإنسان عن العمل، فلذلك أراد موسى أن يزيل هموم عمله بدعائه لربّه لتيسير عمله.. الذي يعني الاستعداد للقيام بدور أكبر.

٣- **﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾** كلمة اللسان هنا ربما تعبّر عن الإعلام، فموسى عليه السلام كان يطمح إلى إعلام قوي يدخل في الأعماق، وربما هذه الفكرة مأخوذة من قوله تعالى: **﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾** وبمعنى آخر أن موسى كان يطمح إلى امرين:

الأول: قوة الإعلام الذاتية، وهذا لا يتم إلا بمعرفة منطق الناس، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [إِنَّا مَعَاشِرَ الْأنْبِيَاءِ أُمِرْنَا انْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُوْلِهِمْ][1]. وهذه الفكرة يدل عليها قوله تعالى: **﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾**.

الثاني: خلق التأثير، أو بمعنى آخر: الطلب من الله أن يلهم عقول الناس التفهم لرسالته، وكأن موسى يدعو لهم بالعقل، وهذا ما تدل عليه الجملة الثانية: **﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾**.

٤- **﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ اهْلِي * هَارُونَ اخِي * اشْدُدْ بِهِ ازْرِي﴾** لقد كان هارون اكبر سناً من موسى، وكان جلال النبوة ظاهراً على محياه، وكانت مهمات موسى عظيمة، إذ لم تقتصر على تبليغ رسالات الله فحسب، بل وأيضاً مقاومة طاغوت متجبر كفرعون، وإنقاذ شعب مستضعف ثم قيادته وتوجيهه، فدعا ربّه أن يجعل هارون وزيره.

الاجتهاد ضرورة للاستعداد

ودعوة النّاس إلى الله هي محور حياة الإنسان المؤمن، ولا يشغله عن ذلك أي شيء

١- الكافي، ج١، ص ٢٣.

آخر من توافه الدنيا، وليس لديه الوقت الكافي للتكاسل والخمول، لأنه يدرك أنّه ملتزم بمسؤولية تتطلب منه الاستعداد بشكل دائم، والتعبئة باستمرار، وتعبئة الناس تعبئة فكرية وإيمانية، والتخطيط للمستقبل والتهيؤ لما هو قادم.

الخلاصة: لابد أن تكون ثقافتنا هي (التحدي) و(التصدي)، لكي نبني مستقبلاً يزهر بروح الإيمان، مستقبلاً شمسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليعطي دفء التقوى، والقيم الدينية المثلى.

الفصل الثاني:

مسؤوليات رسالية

منذ البذرة الأولى له في شبه الجزيرة العربية وحتى يومنا هذا، واجه الإسلام تحديات مصيرية، منها ما يهدد وجوده، ومنها ما يهدد بقاءه نقياً دون تغيير، أي بتغيير ملامحه، وباستبدال قيمه، ولم تكن فترات الاستقرار سوى فترات محدودة قياساً بفترات التحديات.

ويثير ذلك سؤالا متكرراً: لماذا تستمر القيادات الإسلامية الحقيقية بجهادهم وتربيتهم للمجاهدين؟ الجواب: لأنَّ الصراع في هذه الدنيا صراع وجود، ومسؤولية كل فرد منّا المحافظة على وجود الدين الذي حملته لنا دماء المجاهدين من العلماء والشهداء.

ويمكننا ايجاز هذه المسؤولية بعدة توجيهات:

١- إنّ تلك الجهود التي بذلها العلماء في السابق - والتي أشرنا إليها في المقدمة - ووصلتنا اليوم، هي أمانة بين أيدينا، فالمطلوب أن نحافظ عليها ما استطعنا. وما دمنا نكون مستعدين للمواجهة، نستطيع كسر شوكة الأعداء، وسعينا للمحافظة على جهودهم هو خطوة في اتجاه تذليل العقبات.

٢- التحلّي بالقوة الروحية من خلال التوكل على الله، لنتمكن من تحدي كل نظام طاغوتي، فأعداؤنا يتصفون بالغدر والخداع، ولا سبيل لمواجهتهم إلّا بالتوكّل الذي يمدنا بالقوة الروحية.

٣- التوسل بالأعمال الصالحة، يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾**[1]، بمعنى توسلوا بالأعمال الصالحة.

٤- الأمل بنصر الله، فالنصر للمؤمنين العاملين بإذن الله، لأنه سبحانه يقول: [أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ][2]، فالأمل يمنح المؤمن ثباتاً، ويزيده عزيمة وإصراراً على المضي قدماً، ويقول الله عز وجل في ذلك: **﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**[3]. فتكون النتيجة المفرحة: **﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ *

١- سورة المائدة، الآية ٣٥.

٢- سورة الحج، الآية ٣٩.

٣- سورة محمد، الآية ٧.

بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ويمكننا استلهام هذا الأمر من ملحمة عاشوراء، تلك الثورة التي مادت بعروش الطغاة، وزلزلت أركان المنافقين، فهي منهاج حياة متكامل، ومن الخطأ أن نتعامل معها على كونها قصة حزينة عابرة فحسب، بل علينا أن نتعامل معها كوسيلة للنهضة الكبرى، فمثلاً، إنَّ المؤمن الحسينيّ يبكي أمام سيده، لكنّه ضاحكٌ متبسّمٌ قبال الظالمين، كما يصف الشاعر سيدنا ابا الفضل العباس عليه السلام:

عبست وجوه القوم خوف الموت   والعباس فيهم ضاحك متبسّم

فعلينا أن نمعن النظر في موقف أبي الفضل عليه السلام في يوم عاشوراء، حيث وقف بكل ثبات وعزم أمام الألوف المدجّجة، دون أن يبالي بهم، لأن نظره كان متوجها نحو هدف أكبر، وهو نصر الله، فاستحق أن يوصف بأنه كان صُلب الإيمان، نافذ البصيرة، فجديرٌ بنا أن نسير على نهجه، ثم نحاول ان ننشر ما استلهمنا منه من الوعي في المجتمع.

٥- الإسلام هو دين التصدي والتحدي لا دين الخذلان والانكسار، ومن ذلك المواجهة الإعلامية والثقافية، لأنّه أصبح بمثابة السكة الحديدية التي تحدد مسار المجتمعات وثقافاتها. ولذلك فإن هذا الصراع لا يقل خطورة وأهمية عن الحروب الميدانية التي حقق الشيعة فيها انتصارات عظيمة في الأمس القريب، وعلى التاريخ أن يسجّلها لتعلم أجيال المستقبل مقدار قوتنا، ولأهميته نفرغ له مبحثاً منفصلاً إن شاء الله.

١- سورة الروم، الآيات ٤-٦.

الإعلام: كلمةٌ طيبة، أو كلمةٌ خبيثة

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ احَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ ابَا احَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَاصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[1].

في القرن الواحد والعشرين وقعت مستحدثات كثيرة، وتغيرت كثير من المقاييس، واقتربت المسافات حتى كأن العالم أصبح قرية صغيرة يسهل التنقل بين ضواحيها، وتناقل أخبارها، فما حدث من حدث في مكان ما فيه إلّا وتجده انتشر في ضواحي الأرض كلها، انتشار النار في الهشيم، فلم يعد لأي منطقة خصوصية على باقي المناطق، فالأحداث لم تعد تختص بمكان دون آخر، فبتنا نرى رجلاً في أدنى الغرب يتحكم ويؤثر بملايين الناس في أقصى الشرق. فلم يعد ذلك مستحيلاً في ظلِّ وجود الأجهزة والتطورات الحديثة.

فنحن اليوم نتحدث عن تكنولوجيا متطورة وخطيرة جداً، تعمل بذكاء اصطناعي، وتتحرك وفق خوارزميات يحددها طغاة العالم باتجاه رغباتهم، ويستخدمونها ضد أي شيء يهدد مصالحهم، وبأساليب متعددة، بدءاً من تحديد المواقع والتحكّم بالرأي العام، وصولاً إلى تنفيذ عمليات الاغتيال الخطيرة. وبالتالي قد يكون استخدام هذا

١- سورة الأحزاب، الآيات ٣٩-٤٣.

النوع من التكنولوجيا هو مؤشرٌ أوليٌ بفناء البشرية بأيديهم.

نحن اليوم أمام معطيات جديدة تفرض علينا سؤالاً أساسياً: هل نتعامل معها بعقلية الماضي، أم ننسجم معها بما يحقق المصالح الإسلامية؟

الجواب: لا سبيل لنا إلا الأخذ بهذه الوسائل الحديثة، والعمل على تطوير الذات، خصوصاً في الجانب الإعلامي، بعدما أصبح الإعلام اليوم العنصر الأكثر تأثيراً، بعد أن كان الأقل، وذلك بفضل التقدم الحاصل، وزيادة وعي المجتمع، وكثرة المتعلمين.

فقد كانت الإذاعات وأجهزة التلفاز المحلية هي الوسائل التقليدية، أما اليوم فقد قلبت الشبكة العنكبوتية المعادلة، وأسهمت في ظهور تيارات إعلامية هائلة. وأدوات لا تقل خطورة عن القنابل النارية، فقد بات الإعلام سلاحاً فتاكاً لتدمير الروح، وتمزيق المجتمعات، من خلال أساليب متعددة، تارة بتهويل المشاهد، وأخرى بتكذيب الحقائق، وثالثة بنشر الفتنة، وتلك ذخيرة يقدمها إبليس لأوليائه، كما قال تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾[1].

وأيضاً بالتركيز على بثّ السلبيات، حتى وإن كانت الأنظمة التي تبثها تحمل في داخلها سلبيات أكبر. فالعدو يسلّط الضوء فقط على سلبيات الآخرين، فيُقطع الماء عن العراق، ثم تتهم الدولة بالفشل. ومثل ذلك ما يجري في أفريقيا، حيث يتقاتل السودان ومصر مع اثيوبيا حول سدّ النهضة الذي موّلته أمريكا، وتعلقت به أيادي صهيونية، والنتيجة أن خمسين مليوناً في السودان ومائة مليون في مصر يواجهون خطر العطش، ولكنّ الإعلام الغربي لا يسلّط الضوء على المؤامرة الغربية في ذلك كلِّه.

ويستمر هذا العدو في صبّ حربه ضد شعوبنا، فالحروب الاقتصادية لا تقل خطورة عن أي حرب عسكرية، ونجد أنّها تأتي متزامنة مع الحرب الإعلامية أيضا.

ففي هذه الأيام نشاهد الحرب الاقتصادية على الشعب الموالي في الجمهورية الإسلامية في إيران، فالأعداء منعوا عن هذا الشعب الوسائل الحضارية لخمسين سنة،

١- سورة الشعراء، الآيات ٢٢١-٢٢٢.

ومعه الحرب الإعلامية، فمن جانب يُمنعون من الخيرات، ومن جانب آخر تنهال عليهم الماكينات الإعلامية بالتضليل، ماكينات يقودها أشخاص باعوا دينهم بثمن بخس، وضحوا بضمائرهم لأسباب تافهة، فدمّروا عقولهم بأفكار الشيطان. مثل هؤلاء تشتريهم الدول المستكبرة بأدنى ثمن، والأخطر من ذلك أن البعض يتأثر بهذه الأفكار المشوّهة، فتنعكس على مواقفه، ثم ينقلها دون تمحيص.

الكلمة الطيِّبة سلاحُ المؤمن

وإزاء كل تلك المخططات والأعمال العدائية، كان على الأمة الإسلامية التصدي لها، وقد وهب الله لكل إنسان أدوات يمكنه من خلالها مقاومة تلك الهجمات، وهي العقل، الفطرة، والإيمان، وحين تترجم هذه الوسائل عبر الكلمة الطيبة، تتحول إلى سلاح فتاك يمكنه كبح أي عدو. فالكلمة الطيبة مثل بحرٍ قادر على اغراق سفن الفساد، وهي مثل عصا موسى التي أخذت تبتلع إفك السحرة، من عصي وحبال زئبقية تضربها الشمس فيخال لمن يراها أنها تسعى، فكلها عصي شيطانية تلاشت أمام عصا الحق.

فمهمة المؤمن أن يلقي كلمته خالصة لوجه الله تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿**قُلْ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾[1]، فللكلمة الخالصة لوجه الله ميزة فريدة، وهي النفوذ، فلا يقف في طريقها شيء، وهي تنفذ حتى في قلوب العصاة، فرب العزة ليس قريباً من المؤمنين فقط. وهذا يعطي دافعاً بعدم التوقّف عن نشر الكلمة الطيّبة، فلا يدري الإنسان لعله يقلب حياة إنسان من الظلمات إلى النور بكلمة، وذلك بما يجعل الله سبحانه وتعالى فيها من أثر.

جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: [إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَيَكْتُبُ اللهُ بِهَا إِيمَاناً فِي قَلْبِ آخَرَ فَيَغْفِرُ لَهُمَا جَمِيعاً][2].

١- سورة الأنعام، الآية ٩١.

٢- المحاسن، ج١، ص٢٣١.

وهكذا يمكن للكلمة الطيبة أن تأخذ صداها التاريخي، فهذا الفرزدق الشاعر المعروف، لازالت قصيدته بحق الإمام السجاد عليه السلام تُقرأ حتى اللحظة، رغم أن له خمسين قصيدة أخرى، منها في مدح بني أمية، إلّا أنّ الناس لا يستذكرونها ولا يذكرونه بها، بل بقصيدته في الإمام السجاد عليه السلام، لأنها كانت تعبيراً عن الحق وقد حملت بين طياتها الضمير المحض.

الكلمة لا تموت

وعلى المؤمن الرسالي أن يعلم أن لكل فعل رد فعل: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه**﴾[1]، وما من كلمة إلّا ولها صدىً ينعكس على الواقع عاجلاً أم آجلاً.

فالكلمة الطيبة ﴿**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾[2]، والكلمة الخبيثة ﴿**كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**﴾[3]، تهوي بصاحبها إلى النار. لكن تأثيرها ليس فقط في الآخرة، بل تؤثر أيضاً على دنيا قائلها، فكم من كلمة خبيثة آذت قائلها، وكم من كلمة صادقة أنجت صاحبها، فالكلمات لا تموت أبداً، وستنعكس على الواقع ولو بعد حين.

فإذا كان الأمر كذلك – وهو كذلك- فحريّ بالإنسان أن يزيد من كلماته الطيِّبة، ومن الكلمات التي يدعو فيها إلى الله، وإلى دينه، وينشر بها الفضيلة، ويعلِّم بها العلوم، فربَّ كلمة تفتح لإنسانٍ آفاقاً تنقله من ذلِّ المعصية إلى عزِّ طاعة الله، ويكون ثوابها وأجرها لقائلها.

فالمؤمنون ينظرون إلى الجانب الغيبي في تلك الكلمة، وما يجعل الله من الأثر فيها، جاء في تفسير القمّي:

[وَلَمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ امَرَهُ اللهُ انْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ فَقَالَ: يَا رَبِّ

١– سورة الزلزلة، الآيتان ٧و٨.

٢– سورة ابراهيم، الآيتان ٢٤و٢٥

٣– سورة ابراهيم، الآية ٢٦.

وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟ فَقَالَ اللهُ: اذِّنْ، عَلَيْكَ الْاذَانُ وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ. وَارْتَفَعَ عَلَى الْمَقَامِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُلْصَقٌ بِالْبَيْتِ... وقال: ايُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ فَاجِيبُوا رَبَّكُمْ.

فَاجَابُوهُ مِنْ تَحْتِ الْبُحُورِ السَّبْعَةِ، وَمِنْ بَيْنِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى مُنْقَطَعِ التُّرَابِ مِنْ اطْرَافِ الْارْضِ كُلِّهَا، وَمِنْ اصْلَابِ الرِّجَالِ وَارْحَامِ النِّسَاءِ بِالتَّلْبِيَةِ: لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، اَوَلَا تَرَوْنَهُمْ يَأْتُونَ يُلَبُّونَ؟ فَمَنْ حَجَّ مِنْ يَوْمِئِذٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهُمْ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿**فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْرَاهِيمَ**﴾ يَعْنِي نِدَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمَقَامِ بِالْحَجِّ][1].

لا يصدّق بهذه القصة، وبأي قصة يتجلى فيها الجانب الغيبي (أو المعنوي) من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، لكن المؤمنين يعلمون أن أعمالهم وكلماتهم كلها مقدّرة ومحسوبة، ويجب أن تعود عليهم إما بنفع أو ضرر، ولهذا فإن الرساليين يصرّون على تبليغ رسالات ربهم، لأنها ستقرّبهم من الله شيئا فشيئا، حيث إن رسالات الله هي أجلى مصداق للكلمة الطيبة، فيقول تعالى عنهم: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ ويَخْشَوْنَهُ**﴾ في الحاضر ﴿**وَلا يَخْشَوْنَ**﴾ في المستقبل ﴿**أحداً إلّا الله**﴾[2]، ولذلك فإن النصر حليفهم في الحاضر والمستقبل. ثم يضرب الله مثلاً فيقول:

﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ ابَا احَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾[3].

فالسائر في خط النبيّ الذي غيّر العالم في يوم ما، يمكنه فعل ذلك أيضاً، مع الحفاظ على الفارق، لأن الله سيساعد عبده المؤمن، مثلما ساعد أنبياءه. وهذا هو فرق الإنسان الرسالي عن غيره، حيث إنه لا يعتمد فقط على أدوات الكلام وقوة البيان حين ينطق الكلمة، بل هو إلى جانب ذلك يعتمد على الجانب الغيبي في جعل كلماته أوقع تأثيراً من غيره.

وهكذا يجب أن يعتقد المؤمن، لأن هذا الاعتقاد سيمده بالحيوية الكافية التي تجعله

١- تفسير القمي، ج٢، ص٨٣.

٢- سورة الأحزاب، الآية ٣٩.

٣- سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

يتحرك باستمرار في اتجاه رضوان الله ونوره، فيقول الله عز وجل في نفس السورة بعد ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[١]. وفعل (يصلي) يدل على استمرارية الفيض الإلهي. وهذا ما يجعل علماءنا متفوقين دائماً، ودائماً ما يسبقون أعداءهم بخطوة إلى الأمام، وبالنور الإلهي يمكنهم محاربة دعايات السوء، وأبواق الفتن ودعايات المحرضين والمأجورين.

كيف نصدح بالكلمة الطيبة؟

وحتى يصدح المؤمن بالكلمة الطيبة، فعليه أولاً أن يجعل من نفسه وعاءً يستوعبها ويحملها معه أين ما ذهب، ولكي يكون كذلك، فهو بحاجة إلى مراعاة جملة من الأمور:

أولاً: التسلح بالقوة الإيمانية

كمثل شعاع الشمس الواضح عند الشروق، يطلع فيقطع الظلام ويزيحه، هكذا يتجلى الإيمان في شخصية المؤمن، ماحياً عنه الرواسب الجاهلية، فـ(التوكل، والتسليم، والرضا) ثوابت يعيش معها المؤمن، ولا يرتقي درجة بدونها، كما تقول الآية: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ انبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٢]. فعلى المؤمن أن يدعو بهذا الدعاء، لأنه على يقين أن التأييد والتوفيق بيد الرب سبحانه، وبهذا التوكل يطرد عنه وساوس الشيطان وكلماته.

ثانياً: الخشية من الرب

هذه من خير سجايا المؤمن، لا يفترقُ عنها مهما اشتدت عليه صعاب الدعوة إلى الله، تلازمه في كل الحالات، يقول تعالى:

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ احداً إِلا الله﴾.

أما من يخشى الأعداء؛ فإنه لن ينطق كلمته الصادقة.

١- سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

٢- سورة الممتحنة، الآية ٤.

وأشجع الناس من خاف الله، ولذلك يخشى اللهَ من عبادِه العلماء، فترى أئمة الهدى وهم أعلم الخلق وأخشاهم من الله تعالى، هم أشجع الخلق. فإننا مثلاً نسمع كثيراً عن عبادة وزهد الإمام زين العابدين عليه السلام ومداراته للفقراء والأيتام، لكن هناك جوانب أخرى من حياته تحتاج وقفة لندرك عظمتها. فبعد أن قُتل أبوه عليه السلام وأخوته بتلك الطريقة الوحشية، وبعد أن أُخذ قسراً إلى الشام مشياً على الأقدام في بلاط يزيد الملعون، مع جيشه من المرتزقة المتوحشين، وبعد أن أخذ منه التعب والمرض مأخذاً كبيراً، وإذا به عليه السلام يقف أمامهم بكل قوة وثبات وشجاعة غير آبهٍ لا بعدتهم ولا عددهم، وألقى خطبته الشهيرة في ذلك المجلس، وأبكى الجميع، وقلب الطاولة على رأس يزيد، فتمنى ذلك الطاغية لو لم يسمح له بإلقائها، لأنها دمرت كل ما بناه، وفضحته في عقر داره، وبيّنت من كان على الحق ومن كان على الباطل. وكل ذلك لأن الإمام عليه السلام لم يكن يخشَ أحداً غير الله.

ثالثاً: الاستفادة من الوسائل

إن المؤمن ينظر إلى الحياة بعين الآخرة، فما من شيء فيها إلا ويعتبره وسيلة للتقرب إلى الله، تارة بالأخذ به إذا كان فيه طاعة لله، وتارة بتركه إذا كان فيه معصية لله، وقيمة الأشياء بما تقرِّبه إلى الله ويكسب بها رضوانه.

وبما أننا في عصر التكنولوجيا الحديثة، فإن كل وسيلة جديدة يمكن أن نستفيد منها في سبيل ذلك، وما نحن فيه في سبيل نشر الكلمة الطيبة، فإنّ الإنترنت، والذكاء الاصطناعي، ووسائل كثيرة أخرى امتاز بها هذا العصر، وبمقدورنا استثمارها لنشر الدين، بما يتلاءم مع حاجات العصر والأجيال الجديدة.

فإذا كانت الحوزات لا تمضي في السابق إلّا بشكلٍ حضوري، فاليوم اتاحت لنا الوسائل الجديدة تشكيل حوزات الكترونية، يجتمع تحت مظلتها طلبة من كل العالم. نستطيع اليوم ونحن نعتمد هذه الوسائل، أن ننشر نور الإسلام بشكلٍ أسرع في أرجاء العالم. وحين نفعل سنكتشف أن الغالبية تميل إلى الدين، وليس إلى الأنظمة التي وضعتها البشرية.

رابعاً: بذل الجهد

إن سرّ تمايز المؤمنين، وسبب تفاوتهم الرئيسي عن غيرهم هو مقدار العمل وكمية الجهد الذي يبذلونه، وخصوصاً بالنسبة إلى طلاب العلم، وفي بعض الأحيان تصبح المسافة بينهم كبيرة جداً، والسرّ في ذلك أنهم يعتبرون كل لحظة من حياتهم، وكل نفس بل كل نبضةِ قلب ثمناً للجنان، ودرجات لسلم القرب إلى الله، ليحوزوا بذلك نصر الله، ويصبحوا قبسات أنوار تقرّب الآخرين إليه تعالى، أو دروعاً تحميهم من هجمات الأعداء -المادية والمعنوية- أو أسلحة تدك عروش الظالمين.

فلذلك حين تقرأ سيرة علمائنا الأعلام، قد تتعجَّب في الوهلة الأولى من مقدار انجازاتهم العلمية والعملية، رغم صعوبة حياتهم والتحديات المختلفة التي لم يخلُ منها زمانٌ[1]، ذلك لأنهم كانوا يغتنمون كل لحظةٍ من لحظات حياتهم.

فمثلاً يروى عن العلّامة الحلي (رض)[2] أنَّه: كان يذهب الشيخ لزيارة الإمام الحسين عليه السلام كل أسبوع، وكانت الجمعة يوم عودته إلى دار سكناه، وحين يعود يشرع بتدريس طلابه يوم السبت. وذات مرة تأخّر أكثر من ذلك، لأنه أضاف الى زيارته إلى كربلاء، استجابة دعوة مؤمن وحضور حفل عرس في مدينة المسيَّب، ولما عاد وأمَّ المصلين لم يأتمّ به ولده، ظناً منه أن تركه للدرس يوم السبت كان بلا عذر مما أفقده عدالته، فأخرج له الشيخ من جبته كتاباً فقهياً غنياً بعنوان «تبصرة المتعلمين» ألفه خلال زيارته لسيد الشهداء عليه السلام ذهاباً وإياباً، ما تطلب منه استغراق وقت أطول.

فهنا نتساءل: كم نهتم نحن اليوم باغتنام أعمارنا؟ وكم يُصرف اليوم من اعمارنا في مسائل جانبية، فضلاً عن اللهو أو اللغو؟

خامسا: الصمود والتصدي

تحت أشعة الشمس اللاهبة، وفوق كثبان الرمال الحارة، وفي قبال ثلاثين ألفاً من

١- يشير السيد المرجع الى ذلك بشيء من التفصيل في خاتمة تفسيره القيّم من هدى القرآن الكريم.

٢- الحسن بن يوسف بن علي بن محمد بن مُطهّر الحلي (٦٤٨ . ٧٢٦ هـ)، المعروف بالعلامة الحلّي، من كبار علماء الشيعة الإمامية في القرن الثامن للهجري، من أشهر مؤلفاته: كشف المراد، ونهج الحق وكشف الصدق، وباب الحادي عشر، وخلاصة الأقوال، والجوهر النضيد و منهاج الكرامة. كان أول من لُقِّب بآية الله، ويُقال له في المحافل الشيعية العلامة الحلي حتى كاد يختص لقب العلامة به دون غيره.

المرتزقة الضالين، ووسط قرع الطبول الذي أصم الآذان عن سماع أي صوت، وقف أبو عبد الله الحسين عليه السلام يتكلم ليعظ القوم ويذكِّرهم بالآخرة، ويذكِّرهم مقامه وهو ابن من، مستمراً غير آبه بصوت الطبول التي قرعوها ليغطوا على كلامه، خوفاً من أن يسمعوها فيتأثروا به، غير أنه عليه السلام لم يتوقف، واستمر بخطبته، لأن إرادته في إيصال رسالات ربه كان أكبر منهم، ولأنه كان يعلم عظم الكلمة الطيبة، فلم يرد التفريط بها حتى في ذلك الوقت العصيب والظروف الحالكة.

وهذا درس مهم علينا تعلمه، بألّا نقطع الأمل في الناس، فلعلهم يتأثرون بما نقول، كما تأثر ابن (أو حفيد) السندي بن شاهك - قاتل الإمام الكاظم عليه السلام بأمر هارون العباسي (لعنه الله) - بكلمات الإمام، حتى أصبح من علماء الشيعة، مع أن أباه (أو جده) لم يتأثر بكلام الإمام عليه السلام.

المؤمن ومسؤولية الإصلاح

﴿وَاوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَاخِيهِ انْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَاقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلاهُ زِينَةً وَامْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى امْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الالِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

حين انحرفت الخلافة عن مسارها الإلهي، وتلاقفها صبيان بني أُمية، ثمّ بعدهم أشقياء بني العباس، فقدت الأمة روح الإسلام الحقيقية، فبقي من الدين قشر يوظفه الطغاة كما شاءوا ليتسلطوا على رقاب المسلمين به.. هناك كانت الأمة في سبيل الانحدار يوماً بعد يوم، حتى فقدت جميع عوامل القوة لديها، الدفاعية والهجومية، المادية والمعنوية، فتضعضعت تلك الحضارة العظيمة التي كانت يوماً ماً تتبجّح بامتلاكها خراج غيوم الأرض جميعاً.

عندها توالت على الأمة الإسلامية هجمات الاعداء، هجمات المغول من شرقها، والصليبيين من غربها، وأدخلت المسلمين في حقبة مظلمة، وتركتهم تحت مظلة كبيرة من الجهل والتخلف مدّة من الزمن، جعلتهم في مؤخرة الحضارات البشرية.

واستمرت تلك الحال، حتى ظهر الحسن بن يوسف بن علي بن محمد بن مطهّر، الملقب بالعلامة الحلّي (رض) الذي ولد سنة ٦٤٨هـ، وحين ظهر كعالم شيعي، تسبب

١- سورة يونس، الآيات ٨٧-٨٩.

بشكل مباشر في انقشاع سحابة الجهل التي كانت مخيمة آنذاك على العراق، فبعد أن حرّر نفسه من تلك الأغلال أولاً، وتحدّى الظروف التي فُرضت على الأمة الإسلامية آنذاك، وتحدّى خمول بادرة العلم والمعرفة، بفضل ثرائه العلمي الذي عُرف به، قام بنشر المعارف والعلوم في الآفاق.

ولعل شعوره بالمسؤولية تجاه رسالات ربه، كان المنبع الذي استقى منه دافعيته لتحقيق ذلك الإنجاز العظيم، الذي أنقذ الله به التشيع، وما ذاك الشعور إلّا قبسٌ صغيرٌ من نور شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

المصلح أمان المجتمع

إن وجود الأنبياء عليهم السلام ومن سار على دربهم من المصلحين أمانٌ للمجتمع، وقد كان وجود العلامة الحلّي (رض) في ذلك العصر بمثابة وجود أنبياء الله عليهم السلام في أقوامهم، فلو نظرنا إلى ما قام به من عمل عظيم في نشر العلم والفضيلة، وإنقاذ الناس من الجهالة، بمنظار قرآني، لوجدناه امتداداً لما كان عليه الأنبياء، فكما كان الأنبياء والأوصياء والأولياء، كان العلماء والمصلحون مركزاً من مراكز الإصلاح في الأمة، وهم الذين يعبِّر عنهم الله تعالى ب»أولوا بقية» والذين لم تخلُ قرية أو مدينة على مرّ التاريخ منهم، وهم فئة قليلة يعبّر الله عزّ وجل عن حالهم وأهمية وجودهم قائلاً:

﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الارضِ إلّا قَلِيلاً مِمَّنْ انْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[1].

وقد أكّد القرآن الكريم على هذا الأمر بشدّة، وفي مواضع متعددة، وتحديداً في قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم. ولعلّ أجلاها كانت قصة النبي لوط عليه السلام مع قومه الذين أتوا بفاحشة ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين، فلما نهاهم عنها أبوا إلّا الاستمرار بفحشهم، و**﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾**[2]! وحينئذٍ أمر

١- سورة هود، الآية ١١٦.

٢- سورة النمل، الآية ٥٦.

الله عزّ وجل نبيه لوطاً بالخروج من القرية ونبذها وراء ظهره، وحين تركهم المصلح قال تعالى: ﴿**إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى اهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[١].

ثم قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَاهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[٢]. وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي من أبرز أوجه الإصلاح.

لو خُلِيَت قُلِبَت!

لو خُليتَ قُلِبَت.. إنّها سفينة الأمة، لو خُليت من سَفّانٍ يقودهم إلى برّ الأمان، تلاقفتها الأمواج العاتية، فقلبتها بمن فيها.

إنَّ الأقوام السابقة حين لم يستمعوا إلى وعيد أنبيائهم، ولم يسلّموهم زمام أمورهم، بل أطاعوا سادتهم وكبراءهم من المترفين والمفسدين والطغاة، كانت النتيجة أنهم أضلّوهم السبيل.

وعلى عكس ما قام به قوم لوط، فإنّ بني إسرائيل نجوا من كيد فرعون حين استجابوا لدعوة موسى عليه السلام فحين التفوا حول هذا المصلح العظيم، انشقَّ لهم البحر اثني عشر طريقا.

فنجاتهم كان بعد أن استجابوا لموسى وقبلوا بالموقع الذي جعله الله تعالى: محوراً ينظم حركتهم، وراية تقودهم إلى برّ الأمان، وهكذا قال الله تعالى: ﴿**وَاوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَاخِيهِ انْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَاقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٣].

وبعد أن نجوا من اليمّ، أمرهم بأن يبنوا بيوتاً متقابلة ومتجمعة مع بعضها، لتشكّل حصناً مادياً. ثمّ جمعهم برابط معنوي فأمرهم بإقامة الصلاة، لحاجتهم لمنهج عبادي ينظمهم، ويوثّق العلاقات بينهم وبين خالقهم، وبين بعضهم البعض، وجعل من النبي

١- سورة العنكبوت، الآيتان ٣٤و٣٥.
٢- سورة العنكبوت، الآية ١١٢.
٣- سورة يونس، الآية ٨٧.

المصلح والقائد الرباني محوراً لحركتهم، وبذلك تشكل من كل ذلك بناء مرصوص منيع ضد أي عدو تسوّل له نفسه اختراقه.

ولكي تستمر هذه المسيرة فإنها بحاجة إلى مددٍ معنوي لأفرادها، وما من مددٍ كالثقة بالنفس، فهي وقود المؤمنين للتحرك، وزرع هذه الثقة في نفوسهم هي مسؤولية تقع على عاتق ذلك القائد. ولعله لأجل ذلك قال الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإذاً هناك مصيران: مصيرُ الاستجابة للمصلح والاصلاح، فإنَّ نهايته الفلاح والنجاح. ومصيرُ التعدّي والرفض، ونهايته الهلاك والفناء.

وما زلنا نرى حتى اليوم كيف أن القيادة التي تتخذ دين الله مرجعاً لها تنجو وتُنجي من سار خلفها، حتى أمام أعتى القوى وأكثرها شرّاً، وقد شاهدنا ذلك بأم أعيننا بالأمس القريب في حرب الإثني عشر يوماً بين إيران والكيان الصهيوني، ومن بعدها المؤامرات المتلاحقة، حيث استطاعت هذه الدولة تجاوزها لأنّ على رأسها فقيه. ومن هنا نؤكد أن القائد الحق هو «رجل الدين». فالتاريخ شاهد على أن العلماء، بما حملوه من توكلٍ على الله واستمدادٍ من نوره، استطاعوا أن يهزموا خصومهم وينصروا الحق.

وكان دأب إيران أن يجتمع سكانها حول بوتقة العلماء كلما واجهها خطر، أو هدَّدها مهدِّد، أو تدخَّل في شأنها مستعمر، ولذلك يرى الاستعمارُ إيران اليومَ كأنها عظم عالق في البلعوم.

قد يظنّ بعض الناسُ أن العلماء أشخاص تطغى عليهم السلمية، ويُفضّلون عدم الصدام والتصدي مع أي جهة معادية، لكنهم يغيرون رأيهم حين يرون أن العلماء في اللحظات الحساسة ينهضون ويقارعون الشيطان، ويذلون أولياءه، ونتيجة لذلك منهم من يستشهد، ولولاهم لم نرَ إيران كما نراها اليوم.

لنكن منازلَ للرحمة

ولما كان العلماء هم هذه السفينة، والمرآة التي تعكس شعاع الحق، ومواضع نزول

الرحمة، وأسباباً لنجاة من حولهم، فهل يمكن أن نصبح منهم، لنكون وسائل نزول الرحمة الإلهية؟

كل واحدٍ يملك الفرصة بأن يصل لهذا المقام، فقصة الصالح (حبيب النجار) الذي يُعرف بمؤمن آل ياسين، وهو الرجل الذي حمل على عاتقه مهمة نشر الخير، والقرآن إنما ذكر قصته لتكون رمزاً يحتذى به، وطريقاً لنيل المكرمات.

ويستطيع المرء أن يصبح نجماً يهتدي به الناس، وكما جاء في الحديث: [إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ][1]، فيحصل على الفضل والفضيلة، كما جاء: [وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُوم][2]، يُصبح نومه خيراً من شخوص الجاهل: [نَوْمُ الْعَالِمِ افْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْعَابِد][3].

المجتمع المؤمن وامتحانُ الدنيا

ثم يقول تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَامْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾[4].

إن القائد الحقيقي هو من لا تغريه زينة الحياة الدنيا، كما وأن موسى عليه السلام لم تغرّه ثروة فرعون، ولا سطوته ولا قوته، فالآية الكريمة على لسانه الشريف تشير إلى حقيقتين هامتين:

١- إن فرعون كان يمتلك زينة مغرية جداً، هدفها إضلال الناس، وصرفهم عن طريق الحق.

٢- إن موسى كان يعلم حقيقة هذه الزينة، وأنها زائلة لا محالة، ومع أنها كانت كبيرة جداً إلّا أنها لم تكن جذابة بما يكفي لتغرّه، لأنه أكبر منها بكثير.

ولكن تلك الزينة كانت عقبة أمام المجتمع، إذ كانت وسيلة لإضلال الناس عن

١- منية المريد، ص١٠٤.

٢- الكافي، ج١، ص٣٤.

٣- من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٦٧.

٤- سورة يونس، الآية ٨٨.

سبيل الله، وهكذا كانت تشكل عقبة كأداء أمام القادة الربّانيين والمصلحين أن يبلّغوا رسالات ربهم، لذلك دعا موسى عليه السلام ربّه قائلاً: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى امْوَالِهِمْ﴾. أي اجعلها بلا بركة، فتتناقص قيمتها وتفقد أثرها، كما نرى اليوم في انخفاض قيمة الدولار الذي فقد أكثر من ٩٠٪ من قوّته خلال قرنٍ واحد[١].

وفي دعائه أيضاً قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجعل قلوبهم قاسية لا تلين للحق، مثل أرضٍ جدباء لا تُنبت زرعاً، حتى قال: ﴿فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الالِيمَ﴾.

وقد استجاب الله سبحانه دعاءه ف﴿قَالَ: قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ لكنه اشترط لذلك الاستقامة: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾، أي إذا بلغ الإنسان منصباً أو سلطةً، فعليه أن يبقى نزيهاً لا يطمع في أموال الناس، ولا يلجأ إلى التزوير أو الفساد.

ثم ختم سبحانه بقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ تحذيراً من الانخداع بمن ضلّ عن الحق واتبع الهوى.

وهكذا على المجتمع المؤمن – وكل مؤمن ومبلغ رسالي – أن لا يغترّ بزينة الحياة الدنيا، وأن يجعل الاستقامة منهجه في الحياة، ولا يتبع سبيل الذين لا يعلمون.

١- خلال قرن واحد فقط، تضاعف قيمة الذهب بالنسبة الى الدولار ٢٦٣ ضعفا!

الفصل الثالث:

دور الحوزات العلمية في الإصلاح والنهضة

على مرَّ العصور، تميَّزت حوزاتنا العلمية بالأصالة حيث تخصصت في فقه الشريعة الإسلامية والعلوم التي تتصل به، ولذلك فهي بقيت حصناً حصيناً للأمة، وفي نفس الوقت هي أهمّ أداة لتغيير واقع الأمة من التخلّف والفساد والتبعية، إلى التقدّم، والسلامة، والاستقلال.

في الفترات المظلمة التي مرّت على الأمة، تعرَّضت الأمة لهجوم غربيّ شامل لجميع الأبعاد تقريباً، الثقافية والعلمية والاجتماعية والسياسية والفنية والاقتصادية والعسكرية و.. ولكن العلماء ومِنْ خلفهم الحوزات العلمية وقفوا يذودون عن حرمات الدين كالطود الشامخ، حتى انحسر الهجوم وعادت الأمة إلى وعيها وشخصيتها.

ولكن، إذاكانت الحاجة في تلك الظروف إلى الأصالة أكثر من الحاجة إلى الانفتاح والتطور، فإنّ العصر قد تغيّر، وتغيّرت الحاجة معه أيضا، فلذا فإنّ الاهتمام بالحوزات العلمية والسعي لتطويرها نحو الأفضل، هو أمرٌ يجب أن يكون في طليعة اهتمامات الأمة الإسلامية.

واليوم، حيث قرّرت الأمة النهوض من سباتها ودخلت معركة التيار الحضاريّ، فإنّ على الحوزات العلمية أن تقوم بدورها الريادي في وضع البرنامج الرسالي الذي يواكب العصر، وإعطاء الزخم الحضاري الكافي لتنفيذ ذلك البرنامج، والذي يجب أن يكون على الأقل نِدّاً للسيل العرم من الثقافات الدخيلة على الأمة، كالثقافة الغربية، أو المعتقدات المنحرفة، وغيرها، وهكذا فإنّ الحاجة إلى التطوير والانفتاح على مكاسب العصر تزداد للقيام بهذا الدور.

والحديث قد يكون عن (الفرد المصلح) و(المؤمن صاحب الكلمة الطيبة) أو (العلماء) أو (أولوا بقيّة) وهو الذي قد مرَّ في الاحاديث السابقة، لكن يجب ان يكون الحديث عن (المجموع) الذي يؤدي دور الإصلاح بمجموعه، وعن تلك المؤسسة الدينية والاجتماعية والحضارية والعلمية التي تقوم بدور صناعة الرجال الصالحين والمصلحين، ويتربّى في كنفها العلماء العاملون.

وهكذا كان على الحوزات العلمية أن تقوم بدورين أساسيين متكاملين:

أولاً: دور المحافظة على حدود الشريعة ومنع الأفكار الدخيلة ومحاولات التحريف، أي الحفاظ على (الأصالة).

ثانية: تطوير الحياة وتنمية المجتمع بما يتلاءم مع متطلبات العصر وعدم الجمود على الماضي، أي (المعاصرة)[1].

ومعروف مدى صعوبة الجمع بين هذين الدورين المختلفين ظاهراً، إلّا أن عظمة الإسلام المتجلية في عظمة كتاب الله والسنّة الشريفة التي تفسره.. وإن ثراء تراث الأمة ومرونة برنامج الحوزات العلمية، كل ذلك كفيل بأن يدفعنا لتجاوز هذه الصعوبات بعد التوكّل على الله سبحانه وتعالى.

والحديث عن الحوزة العلمية لا يشبه الحديث عن الجامعات التي لم تستطع منذ نشأتها وحتى اليوم، الخروج من حدود النظريات، بينما تُحلّق الحوزات فوق أُطر النظريات، في أُفق الواقع حيث بناء الإنسان النموذجي الذي يحمل على عاتقه الانطلاق في فضاء المجتمع وأداء دوره المطلوب، أينما حلّ وحيثما نزل، بهدف رسم ملامح الواقع بحسب تعاليم السماء التي جاء بها النبيّ ﷺ وعمل بها الخلّص من أصحابه، كسلمان وأبي ذر والمقداد رضي الله عنهم وغيرهم.

وحينما نتحدث عن الحوزة العلمية فإننا لا نقصد العلماء الذين تربّوا بين جدرانها، بل كل من نهل من منهلها، وارتبط بها، أي حديثنا عن (الجيل المنتمي للحوزة العلمية).

فالجيل المنتمي للحوزة العلمية يتميّز بروح وثّابة وعزمٍ ثابت، وبصيرةٍ ثاقبة، ولا يخفى على المطّلع كيف تصدّى هذا الجيل المجاهد للعصابات الإرهابية في العراق، وكيف أخمد النيران التي أشعلها الأعداء واحدة بعد أخرى، وردّه خائباً.

لكن، كيف استطاع أن يفعل ذلك، وهو محاط بإعلامٍ شيطاني ينفث سمومه في المجتمع كلِّه؟

١- بيّن المرجع المدرسي تفصيل ذلك في كتابه القيم (المعهد الاسلامي بين الأصالة والتطوير).

الجواب: لأن في الحوزة يتشبَّع الانسان بالبصيرة الإيمانية، كما يتشبَّع بروح التحدّي، وروح التوحيد الذي في جوهره عدم الخضوع لغير الله، واجتناب كل طاغوتٍ ومستكبر، فلذا ترى أن الجيل المنتمي لها يرفض التهديدات الاستعمارية، ويستقبح جرائم المستكبرين ضدّ الأمم كلِّها، ولا يتأثر بوعد الأعداء و وعيدهم، وعينه بصيرةٌ بجرائمهم والمآسي التي حصلت للمسلمين على أيديهم، ففي الأمس القريب رأينا كيف أن الموالين لأهل البيت عليهم السلام كانوا هم السبّاقين للدفاع عن المظلومين ومواجهة المنظومة الاستعمارية الغربية، وهي الولايات المتحدة الأمريكية وذَنَبها في أرض فلسطين، وهذا مؤشر على أنّ هذه الحوزات لديها ما يؤهّلها لترسم بوصلة التحرك للأمة، ويحدد لها مواقفها سلباً أو إيجاباً، ولذلك ترى رجالها كالأسود في وجه الطغاة لأنّهم يتحركون وفق خريطة إلهية، وبرؤية واضحة.

والأمر لا يرتبط بهذا الزمان فحسب، فحتى في دورات الانحسار الحضاري، كانت الحوزات العلمية الرسالية مرابض للأسود، وهي التي هيأت للمجتمع قادةً استطاعوا – باتّباع الناس لهم – تغيير واقع مجتمعاتهم، ليكونوا من المصلحين.

ومن هنا نقول:

إنّ تعلم علوم أهل البيت عليهم السلام والحصول على تلك الروح المقاوِمة، وتلك البصيرة النافذة فريضة على كل المؤمنين، وبالتالي فإن الانخراط في سلك الحوزة العلمية من واجبات الأمة الأساسية، ومن لم يستطع كان عليه الارتباط برجالاتها والعمل على صناعة الجيل المنتمي للحوزة، المنتمي لها فكراً، وثقافةً، ومنهجاً، وعملاً.

الأعداء ومواجهة الحوزات

وكما نعرف اليوم أهمية الحوزات، فإن اعداءَنا أيضا يدركون هذا الامر، لذلك نرى أن هجماتهم على المستوى الفكري والإعلامي تركّزت على النيل من قوة حوزاتنا، ولكن السؤال: هل نجحوا في ذلك؟

الجواب: بالنظر إلى واقع الحوزات اليوم، وما تتمتع به من تأثير إيجابي كبير في المجتمع

فإنّ أولئك الأعداء لم يحصدوا إلا فشلاً، فقد ذهبت كل محاولاتهم هباءً منثوراً، بل وإن الحوزات بلغت مرتبة جيدةً من التميز بعد الاستقرار.

فأين تكمن قوة هذه الحوزات التي بها هزمت الأعداء؟

وبتعبيرٍ آخر: بأي قوة استطاعت الحوزات العلمية أن تصمد بعد ألف عام من الحرب الضروس التي شنها العدو عليها، وبمختلف الاساليب الارهابية: العسكرية، المالية، والاعلامية؟

هذا ما نفرده في مبحث منفصل بإذن الله.

مكامن القوّة في الحوزة العلمية

ما هي مكامن القوة في الحوزات العلمية، وفي الجيل الحوزوي، التي استطاعوا بها الصمود أمام التحديات طيلة القرون الماضية؟

الإجابة يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: التوكل على الله

في الحديث الشريف، أنَّ جبرئيل جاء الى النبي ﷺ فقال: [يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ارْسَلَنِي إِلَيْكَ بِهَدِيَّةٍ لَمْ يُعْطِهَا احَداً قَبْلَكَ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قلتُ: وَمَا هِيَ؟

قَالَ: الصَّبْرُ وَاحْسَنُ مِنْهُ.

قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: الرِّضَا، وَاحْسَنُ مِنْهُ.

قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: الزُّهْدُ، وَاحْسَنُ مِنْهُ.

قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: الْإِخْلَاصُ، وَاحْسَنُ مِنْهُ.

قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: الْيَقِينُ وَاحْسَنُ مِنْهُ.

قُلْتُ: وَمَا هُوَ يَا جَبْرَئِيلُ؟

قَالَ: إِنَّ مَدْرَجَةَ ذَلِكَ التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَقُلْتُ: وَمَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟

فَقَالَ: الْعِلْمُ بِانَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ، وَاسْتِعْمَالُ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِكَ لَمْ يَعْمَلْ لِاحَدٍ سِوَى اللهِ، وَلَمْ يَرْجُ وَلَمْ يَخَفْ سِوَى اللهِ، وَلَمْ يَطْمَعْ فِي احَدٍ سِوَى اللهِ، فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ][1].

للمؤمن عزمٌ لا ينفد، وارادة لا تضعف، وسرّ ذلك هو التوكّل على الله تعالى، فالتوكل ليس التواكل، وليس الجمود والسلبية والانتظار، وإنما هو العمل.

فالمؤمن يؤمن بأنّ الله تعالى عدل حكيم، ومن عدله أن يعطي لكل إنسانٍ ما سعى، وأن التمنيّات لا تغني عنده شيئا، ويعلم بأن الله تعالى هو المهيمن على الوجود كلِّه، فلذا يتوكّل عليه، لأن التوكّل -كما في الحديث الشريف- اسقاط كل رجاء في سوى الله، لينفتح الطريق أمام الثقة بالله، ذلك الحكيم الذي إنما يعطي بالحق ويمنع بالحق، أي بمقدار سعي الإنسان، وبمستوى إيمانه، وعمله الصالح.

وإدراك هذ الحقيقة يعطي الإنسان دافعاً كبيراً نحو التحرّك والإنجاز، وإزالة أي نوع من الخوف من المستقبل. وأساساً إنّ فكرة التوكّل جاءت لتحارب هاجس الخوف، الذي يشدّ البشرية إلى العبودية والاستسلام.

فالتوكّل يعني نبذ الخوف من السلطان الجائر، ومن العدوّ المتربص، ومن الطبيعة المهيبة، ومن الجنّ والغيلان، وسائر المشعوذين، ومن كيد المنافقين، و... فهو سلاحٌ بيد المؤمن، يدافع به عن حريته في المواقف الصعبة، وإذ يتحرّر الإنسان يندفع للعمل وتتفجر طاقاته البنّاءة، ذلك لأن إيمان الإنسان بطاقاته قد يكون ضعيفاً، وثقته بنفسه قد تكون محدودة، بينما ثقة المؤمن بربّه لا تحد، وإيمانه بقدرته عظيم. فبينما يحتاج الفرد إلى تجربة قدراته قبل أن يثق أنّه قادر على أن ينجز عملاً، لا يحتاج المؤمن إلى مثل ذلك.. لأنه يؤمن سلفاً بأنّ الله لا يخون وعده بالنصر، ولذلك تُفتح أمامه كل الأبواب،

١- معاني الأخبار، ص٢٦١.

وتنشق له البحار، وتُذلّلُ كل الصعوبات، بتوفيق الله عزّ وجلّ.

ويمكن استنزال هذ التوفيق بلحظة عزمٍ واحدة، فهي كفيلة بأنْ تغير مجرى حياة، حيث إن أي انجاز ضخم نراه اليوم إنّما انطلق من تلك اللحظة الحاسمة، التي جاءت وجاء معها توفيق الربّ.

الحذر من تثبيط العزائم

حينما نقرر شيئاً، فإن الله سبحانه بلطفه يهيئ الظروف المناسبة، غير أن الشيطان الذي يجري من بني آدم مجرى الدم من العروق، لا يتركنا للحظة، فهو يلقي بوساوسه على طريقنا ليثبط عزيمتنا. وغاية الشيطان إلهاء الإنسان عن اتخاذ القرار الصائب، ولذلك فإنّنا في لحظة القرار بحاجة إلى الاستعاذة بالله منه، لأنه قد يكون سبباً مباشراً في تراجع أدائنا للعمل الصالح.

فذات يوم كنت جالساً في المخيم الحسيني، وفكرت أن أكتب عن المجاهد العظيم مسلم بن عقيل عليه السلام. وانا منهمك بمشروعي، لفتني شخص كان يجلس بالقرب مني وهو يسأل: ماذا تكتب؟ وبعد أن أخبرته أجاب شبه المستنكر: لماذا تكتب عن مسلم؟ من سيطبع هذا الكتاب؟ وربما لا أحد يقرأه فتذهب جهودك سدىً.. ثم تركني ومضى قبل أن يسمع مني جواباً.

مضى، لكن بقي في قلبي أثر كلماته، وبدت وكأنها سُمٌّ شلّ كلّ خلايا فكري، وأجهز على كلِّ ذراتِ إرادتي، فلم أستطع أن اكمل كتابة حرفٍ واحد.. وتوقَّف المشروع، ولم استطع أن أكمل كتاباً عن مسلم بن عقيل عليه السلام إلا بعد ثلاثين سنة!.

ومن صور تثبيط العزائم، تبرير ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنه لا تأثير له. وأحياناً ينطق إبليس على لسان البشر، فترى البعض لا يعجبهم عمل المعروف، ويحاولون تثبيط المؤمنين عنه، وعلينا ألّا نستمع إليهم، ونتجاهل ما يقولون من كلام سلبيّ، ونصبّ تركيزنا على عملنا.

وهذا الإجراء هو جزء أساسي لا يتجزأ من منظومة التوكل، التي يمكننا أن نعبّر عنها

بأنّها وقود التحرك لروح الإنسان.

ومن يتوكَّل على الله فهو حسبه

حين ينوي المؤمن الرسالي عملاً صالحاً، ويتوكَّل على الله تعالى، فإنَّ الله تعالى يفتح له أبواب رحمته ويهيئ له من المقدمات من حيث لا يحتسب.

يقول أحد المؤمنين: ذهبت إلى منطقة نائية في افريقيا فوجدت جالية شيعية في حالة فقرٍ ومسكنة، ومن ذلك أنهم لم يمتلكوا مسجداً او حسينية لإقامة البرامج الدينية، فنويت إن وفقني الله تعالى أن أسعى في سبيل توفير ذلك لهم، فلم تمرّ لحظات حتى تلقيت اتصالاً من شخص قال لي: اريد بناء مسجد أو حسينية، فهل تعرف مكاناً يحتاج الناس الى ذلك؟ سررت بهذا الاتصال وارشدته الى هذا المكان.

وفي قصة ثانية حكاها لي صاحبها، يقول: ذهبت إلى مدينة لم يكن للشيعة مركزٌ فيها، فعرضت فكرة تشييد مسجد على أحدهم، فتقاعس عن تلبية الفكرة، وآخر وعدني بمبلغ لإنجاز هذا المشروع، لكنه خذلني، فتوجهت بفاطمة الزهراء عليها السلام إلى الله تعالى، وأنا متألم من الخذلان الذي حصل معي. ومضت الأيام، وإذا بشخص لا أعرفه تواصل معي وأخبرني بأنه ينوي انشاء حسينية في هذه المدينة وطلب أن أتولى ذلك الأمر، وطلب أن يكون اسمها: حسينية فاطمة الزهراء عليها السلام.

وفي قصة مشابهة أخرى لسماحة الشيخ حسن مالوبا[1] حين ذهب إلى تنزانيا، فواجه الصعوبات المالية في سبيل العمل الديني، لكن شاءت الأقدار أن يلتقي بزميلٍ له في الدراسة، وكان قد أصبح تاجراً، فقرر دعمه مالياً، وبهذا الوضع الجديد تغير الحال، وبدأ الشيخ يكثف أعماله التبليغية.

وأذكر أني عرضت عليه فكرة أن يقوم بتفسير القرآن الكريم، لكنه في البداية شكك بقدرته على انجاز هذا المشروع العملاق. ومرت الأيام وبعد وفاته، أُخبِرتُ أنه كتب تفسيرين، أحدهما موجزٌ، والآخر مُوسَّع يضم ٢١ جزءاً.

١- من علماء الشيعة في افريقيا.

هذه هي روح الرسالة الأولى، ومنها ينشر المؤمنون وهج العلم والمعرفة.

الحوزة العلمية والتوكّل على الله تعالى

إنّ الهمة العالية هي من طبيعة الإنسان الذي استوعب رسالة السماء، وعرف لماذا خُلق، وإلى أيّ مدى يستطيع أن يسمو، ولكنّ المشكلة الأساسية عند الإنسان هي مشكلة اليأس الذي يجب أن يعالج بالتوكل على الله. فنحن في كلّ لحظة بحاجة إلى التوكّل، خصوصاً من يتولّى مسؤولية معينة، ويصبح قائداً وفي أيِّ رتبة، صغيرة كانت أو كبيرة.

فعندما تختار أن تُصبح قائداً، فهذا يعني أنّك اخترت تحمّل مسؤولية الآخرين بالإضافة إلى مسؤولية نفسك. والآخرون سوف يحمّلونك مسؤوليّاتهم ومشاكلهم، ويطالبونك بتشجيعهم، بأن تفيض من روحك روحاً عليهم، ومن إرادتك عزيمة.

وذلك يكون من خلال الاستعانة بالله تعالى والتوكّل عليه، فهو سبحانه مصدر القوّة المطلق، ولا قوة فوق قوّته التي تمسك السماوات والأرض، بيده السلطة المطلقة على كل شيء، من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة.

إنّ الربوبية أساساً تعني العطاء المستمر، ولذلك فإن رحمة الله عزّ وجلّ على الخلق لا تنقطع، ولو منعها لحظة عنه لمحي من الوجود. لذلك فإن من يتوكّل على القويّ يصبح قوياً، والإيمان بهذه الحقيقة هو التوكل بعينه، العلماء موقنون بهذه الحقيقة، ويعتبرونها نقطة محورية. لكن لا يعني ذلك ان يتوقّف المؤمن عند هذا الحد، بل عليه رفع سقف طموحه إلى ما هو أعلى من ذلك بكثير. فهناك من يأخذ بأيسر الحقائق، وهناك من يدخل بعمق، ويمد لروحه الطاقة والتفاعل، من ذلك العطاء منقطع النظير.

ولذلك فإن المؤمن الدائم الاتصال بهذا العطاء الكثير والكبير، يبقى ثابتاً حتى لو زالت الجبال، تحت أي ظرف كان، فهو -كما جاء في وصف المؤمن -: [فِي الـزَّلَازِلِ وَقُـور][1] فترى المؤمنين رغم قساوة المواقف ومرارتها يعيشون وكأنهم مرفّهون، لا يصيبهم

١- سليم بن قيس الهلالي، ج٢، ص٨٥٢.

همٌّ ولا غمٌّ، قد شاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولكن أهل الدنيا لم يشاركوهم في آخرتهم.

هذا هو حال المؤمنين المتوكلين على الدوام. وإذا قلّبنا صفحات التاريخ بحثاً عن مصاديق لهذه الحالة، فلعلنا لن نجد أبهى من الصورة التي رسمتها عاشوراء عن التوكل.

ففي صبيحة يوم عاشوراء أخذ بُرير يضاحك عبد الرحمن، فقال له عبد الرحمن: يا بُرير اتضحك؟ ما هذه ساعة ضحك ولا باطل، فقال بُرير: لقد علم قومي انني ما احببتُ الباطل كهلا ولا شابا، وإنما افعل ذلك استبشارا بما نصير إليه، فو الله ما هو إلا ان نلقى هؤلاء القوم باسيافنا نعالجهم بها ساعة، ثم نعانق الحور العين[1].

حتى الفتيان هناك كانوا بمستوىً عالٍ من التوكل، حتى أن أحدهم وهو – القاسم بن الحسن المجتبى عليه السلام – دخل الميدان يواجه أعداء الله رغم صغر سنّه، حتى أوقع فيهم مقتلة عظيمة، وفي لحظة من لحظات القتال انقطع شسع نعله، والوحوش الامويون يحيطون به من كل جانب، إلّا أنه لم يكن يهتم بهم، فانحنى ليصلح نعله باعثاً برسالة ساخرة: نعلي هذا أهم من جيشكم. والحقيقة أنّه كان في قمة التوكل، فلم تخفه قوة الأعداء شيئاً.

وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للمتقين: [عَظُمَ الْخَالِقُ فِي انْفُسِهِمْ وَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي اعْيُنِهِم][2].

ثانياً: العمل المضاعف

مداومة العمل تجعل الإنسان فولاذياً، وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[3]، فالمداومة على العمل هو مظهر عملي من مظاهر الصبر، يجعل العمل مضاعفاً، فيُقاس الصابر بعشرة. وبهذه الطريقة تتقدم المجتمعات وتقوى، بينما في أحيان أخرى يطرأ عليها الخمول والكسل.

ويعتبر العلامة الحلي رحمه الله من العلماء العاملين في الساحة الإسلامية، ومثالاً ناصعاً

١– اللهوف على قتلى الطفوف، ص٩٥.
٢– سليم بن قيس الهلالي، ج٢، ص٨٥٠.
٣– سورة الأنفال، الآية ٦٥.

في العمل المضاعف، إذ بلغت مؤلفاته الألف كتاب، وأما في الزمن القريب كان المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي ﵀ المؤلف الأكثر كتباً، حيث تجاوزت مؤلفاته ألف ومائتي كتاب!

بمجرد سماع هذه الانجازات، ولو لوهلة! يتصور المرء أن العلماء عاشوا في أوساط دائبة في العمل، فأعانتهم في تحقيقها، بينما الحقيقة أنهم عاصروا مجتمعات جامدة، إلّا أنّ ذلك لم يمنعهم من الوصول إلى القمة وتحقيق تلك الإنجازات العظيمة، لأنهم اقتدوا بالأئمة الطاهرين، واصحابهم الصالحين. وهذا الاقتداء هو المنبع الثالث الذي استقت منه الحوزة قوتها، والذي نتحدث عنه فيما يأتي.

ثالثاً: الاقتداء بالصالحين

للمؤمن طموح بأن يجتمع مع العظماء عند ربّه، إنَّه دعاء النبيّ يوسف عليه السلام الذي دعا ربَّه قائلا: ﴿**فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾[1].

وهذا الطموح ينعكس عملياً على حياته، عبر جعله الصالحين قدواتٍ له، فهو من جهة يرتبط بالأنبياء والأولياء اقتداءً واتّباعاً، ومن جهة أخرى يجد في العلماء خير مثال عملي للاقتداء أيضا، وبذلك يحصل على الارادة المضاعفة والهمّة العالية لإكمال المسير.

فلكل طريق ضريبة ومستلزمات، وكان مما يُنقل من أحوال السيد أبو الحسن الأصفهاني ﵀ أنه عُرِف بالنوم القليل، فقيل أنّه كان يكتفي بغفوات بسيطة أثناء الجلوس مع الوفود، وحتى يبعد عن عينيه النعاس، كان يطلب الماء للوضوء.

وذات مرّة وفي ليلة حالكة سمع السيد الأصفهاني الباب تُطرق، فهرع ليجد على الباب رجلاً يَجُرُّ أنفاسه بسرعة، يطلب المساعدة لزوجته التي قاربت على الولادة وقد تركها في إحدى الطرق. أخذ السيد يُطمئنه، وأيقظ زوجته لتبقى عند المرأة الحامل،

١- سورة يوسف، الآية ١٠١.

بينما هو ذهب ليحضر القابلة. فأي روح هذه التي حملها هذا السيد بين جنبيه؟!

يصاب الإنسان بالذهول وهو يقرأ قصص العلماء، كيف كان نشاطهم، وكيف حملوا صلابة الإيمان والإرادة القوية. فكل هذه المفاهيم تجلّت في شخصياتهم، حتى أصبحوا مشاعل للدعوة إلى الله.

ولو لم يكونوا يحملون صفات أصحاب أهل البيت عليهم السلام لما كانوا بهذه الصورة البهية، فهم يتعلمون من محمد بن مسلم كيف يحفظون مائة ألف حديث عن أهل البيت عليهم السلام، ويتعلمون من هشام كيف يدافعون عن المذهب ضد الشبهات، ويدرسون قواعد الجهاد التي سطرها أصحاب الإمام الحسين عليه السلام وهم يقارعون بني أمية.

ونحن اليوم لو أردنا أن نصبح مثلهم، لابد أن نفتش في آثارهم، مثلما يفتش صائد الكنوز عن القطع الأثرية الثمينة. وآثارهم تلخصت عند قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[1]، فالإنسان إذا كان ذا إرادة نافذة، فانَّ طاقاته تتفجّر في شتّى المجالات، في التأليف، والقراءة، والخطابة... وعند ذاك لا يضيع أي فرصة، ولا يهدر أي وقت، مثلما أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أباذر عليه السلام: [**يَا ابَا ذَرٍّ، كُنْ عَلَى عُمُرِكَ اشَحَّ مِنْكَ عَلَى دِرْهَمِكَ وَدِينَارِكَ**][2].

ولكن من يُضيّع عمره، فعند المشيب، سيضع يده على خده، ثمّ يقول:

ألا ليت الشباب يعود يوماً   فأخبره بما فعل المشيب

يبقى يتقلقل بين أمواج الحسرة والندم، ولا يجد مركباً ينقذه منها. ومن هنا سمي يوم القيامة بـ(يوم الحسرة) و(يوم التغابن)، ذلك لأن الإنسان يشعر بأنه غُبن، فهو باع عمره مقابل شيء زائل. وعن هذا الصنف يقول الربّ حاكياً: ﴿**رَبَّنَا اخِّرْنَا إِلَى اجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ**﴾[3]، لكن يأتيهم الجواب القطعي من ربّ العزّة: ﴿**كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[4] ليقطع أملهم

١- سورة العنكبوت، الآية ٦٩.
٢- الأمالي (للطوسي)، ص٥٢٧.
٣- سورة إبراهيم، الآية ٤٤.
٤- سورة المؤمنون، الآية ١٠٠.

بالخروج من النّار.

وهذا الأمر بحدّ ذاته يعد دافعاً قوياً ليصبح الإنسان دؤوباً في علمه، لا يتوقف تحت أي ظرف كان، لأنه يمده بالدافعية والهدف الكافيين لاستمرار حركته. ولذا ترى أن طلبة العلوم الدينية الحقيقيين يكونون أنشط من غيرهم، فهم أدركوا هذه الحقيقة سلفاً، فأصبح عمل الواحد منهم يُعادل عمل عشرة أشخاص، وهذا ما لا يوجد في طلبة سائر العلوم الأخرى.

الفصل الرابع:

الحوزة العلميةوالجيل الرسالي

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ احَداً إِلا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ ابَا احَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَاصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[1].

للمؤمن بصورة عامة، وللرسالي بصورة خاصة، مسؤولية الكلمة الطيبة، ولكنها لا تختصر بالإعلام والصدح بالحقِ فقط، فالكلمة الطيِّبة ترتبط بكل ما يحارب الكلمة الخبيثة، ثقافتها، فكرها، منهجها، أدواتها.. فهي التي تجتثَّها، وهي الحق الذي يزهق بمجيئه الباطل.

ومن الأدوار المهمة هو بناء الجيل المؤمن، الجيل الذي ينهل من الحوزة العلمية، من فكرها، وثقافتها، ويرتبط بها ارتباطاً وثيقا، ولكن السؤال: ما هي أهمية ذلك؟

الجواب: ليس الإنسان مثل باقي المخلوقات، فهو يحتاج إلى التربية، ليس من والديه فحسب، وإنما التربية التي يأخذها من المربي المؤمن الرسالي، لكي يرتقي في مدارج الكمال، وهنا تكمن مهمة المؤمن الرسالي الذي تصب أعماله في بناء الآخرين، ف(الخطابة، والكتابة و..) كلها وسائل يستعملها الرسالي لبناء غيره.

وهذا منهج العلماء، ربّوا كثيراً من الناس الذين كانوا ملاصقين لهم، يسمعون منهم، يطبقون أوامرهم، لأن الفرد أصبح روحياً يرتبط بالعالم، سواء كان على قيد الحياة أم بعد رحيله. ومهمة الرسالي صناعة الرجال، وهذا العمل من أعظم ما يؤديه المؤمن.

الإمام علي عليه السلام كان لربع قرن يهتم بتربية الرجال، وصُنع الأبطال، وليس كما يُروج له بأنه أصبح جليس الدار بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمن جمع القرآن؟ وكيف قالوا: [لَوْ لَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَر][2]؟ ومن قام بتربية الرجال الذين تولوا مسؤولياتهم الجسيمة؟

فالإمام علي عليه السلام – وخلال ربع قرن – اهتم بتربية الرجال، وصنع الابطال.

١- سورة الأحزاب، الآيات ٣٩-٤٣.

٢- الاختصاص، ص١١١.

كان ميثم التّمّار مولى عليّ بن أبي طالب عليه السّلام عبدا لامرأة من بني أسد فاشتراه عليّ عليه السّلام منها وأعتقه وقال له: ما اسمك؟ فقال: سالم. فقال: [إنّ رسول اللّه ﷺ أخبرني أنّ اسمك الّذي سمّاك به أبوك في العجم ميثم، فقال: صدق اللّه ورسوله وصدقت يا أمير المؤمنين فهو واللّه اسمي. قال: فارجع إلى اسمك ودع سالما فنحن نكنّيك به فكنّاه أبا سالم][1].

وأغلب أصحاب الإمام الحسين عليه السلام كانوا نتاج تربية الإمام علي عليه السلام، ونحن اليوم من تربية الإمام، لكن عبر التربية التدريجية، فكل إمام سابق أصبح يربي اللاحق، حتى وصلت النوبة لنا، فيربي السابق من هو لاحق على مثل المنهج.

وهكذا فإنَّ أصحاب الأئمة عليهم السلام اصبحوا في قمة الأخلاق، والورع، والتقوى، ولقد كان الإمام علي عليه السلام حاكماً على العالم الإسلامي، فكان يأخذ يد كميل بن زياد رضي الله عنه إلى المقبرة، وهناك يتناولان أطراف الحديث: [يَا كُمَيْلُ! إِنَّ هَـذِهِ الْقُلُوبَ اوْعِيَـةٌ، فَخَيْرُهَا اوْعَاهَـا، احْفَـظْ عَنِّـي مَـا اقُـولُ. النَّـاسُ ثَلَاثَـةٌ: عَالِـمٌ رَبَّـانِيٌّ، وَمُتَعَلِّـمٌ عَـلَى سَـبِيلِ نَجَـاةٍ، وَهَمَـجٌ رَعَـاعٌ، اتْبَـاعُ كُلِّ نَاعِـقٍ، يَمِيلُـونَ مَـعَ كُلِّ رِيـحٍ، لَـمْ يَسْـتَضِيئُوا بِنُـورِ الْعِلْـمِ وَلَـمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْـنٍ وَثِيـقٍ][2]. هذا، وما وصلنا من كلمات أهل البيت عليهم السلام لهو قطرة من بحر علومهم، ولم يصلنا كل شيء.

و في الحديث عن مولى الأمة وإمامها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أن عبد الله بن عباس جاءه يسأله عن تفسير القرآن، فوعده بالليل، فلما حضر قال: [ما أول القرآن؟]. قال: الفاتحة. قال: [وما أول الفاتحة؟] قال: بسم الله. قال: [وما أول بسم الله؟]. قال: بسم. قال: [وما أول بسم؟]. قال: الباء، فجعل عليه السلام يتكلم في الباء طول الليل، فلما قرب الفجر قال: [لو زادنا الليل لزدنا][3].

فمع تربية الناس وتعليمهم الحكمة يتغير العالَم، وهذا أمرٌ ممكن.

١- الغارات، ج٢، ص٧٩٧.

٢- الغارات، ج١، ص٨٩.

٣- البرهان في تفسير القرآن، ج١، ص٤.

اغتنام مرحلة الشباب

من المسائل المهمة التي ينبغي الاهتمام بها، هي اغتنام الشباب في مقتبل عمر الشباب حيث العنفوان والتطلع البعيد، تكون هذه المرحلة مهمة لصياغتها في حمل هذا المشعل، فهؤلاء الشباب [صِغَارُ قَوْمٍ وَيُوشِكُ انْ تَكُونُوا كِبَارَ قَوْمٍ آخَرِينَ][1] كما أشار الإمام الحسن عليه السلام. ومثلما يُقال: (يا شباب اليوم صُنّاع الغد).

وهذا الأمر يحتم على شريحة الشباب أن يتغذوا فكرياً بشكل سليم، فواقع الانسان هو انعكاسٌ لثقافته، وكلما كانت الثقافة رصينة كلما تقدّم المرء في واقعه، والعكس صحيح، حين يُملأ العقل بالثقافات الباطلة.

أين يا ترى تتم تعبئة الشباب علمياً وفكرياً وثقافياً؟

في «الحوزة العلمية».

ويتم ذلك بعدة طرق:

أولا: أن يكون للحوزة العلمية مزيدٌ من البرامج التعليمية التي هدفها تغذية الشباب بالثقافة الدينية الصحيحة، وبالبصيرة النافذة، وبالروح الإيمانية، وربطهم بالأساتذة الأكفاء المؤمنين، وتكون تلك البرامج تناسب الفئات المختلفة، فتكون هناك حوزات تختص بالطلبة الجامعيين، وأخرى بالنساء، وأخرى تكون ليومٍ واحد في الأسبوع، وأخرى الكترونية، وكلّها تدار من قبل الحوزة العلمية ورجالها المخلصين.

ثانياً: أن يؤدي المنتمون للحوزة العلمية دور الارتباط بالشباب عبر المساجد والحسينيات والمراكز الدينية، أو عبر الاهتمام بالجانب الاعلامي بحيث يسهل وصول الشباب لهم، وتربيتهم بالفكر الديني الصحيح.

ثالثا: عبر الكتب النافعة والتي تجمع بين متطلبات العصر وروح الشريعة وعمقها.

رابعاً: عن طريق المحاضرات النافعة، والمزيد من المحتوى المنشور في الفضائيات أو في مواقع النت الموثوقة.

خامساً: استقطاب الطاقات الشبابية للتفرغ للعلوم الدينية وصناعة مزيد من العلماء

١- مكاتيب الأئمة عليهم السلام، ج٤، ص١٣.

العاملين.

إن الحوزات العلمية مرابض الأسود لا حقول دواجن، وقد وجدنا الكثير من طلبة العلوم الدينية قد غيروا التاريخ، وهم مستمرون بعملهم ومنهاجهم، فالحوزات تربط الفرد بالقرآن الكريم، ومن جانب آخر تجعله يتفاعل مع التاريخ الاسلامي. بعد ذلك ترسم له الدور في اتجاهين:

السعي بالطالب ليكون في مستوى تلقي الحكمة من النبي الأكرم والأئمة الطاهرين عليهم السلام.

تقويمه في جانب العمل الميداني.

عناصر بناء المجتمع

البعض يتصور أن أكبر عقبة تقف في وجه تبليغ الدين وصناعة الجيل المؤمن هو الجانب المالي، فعزف البعض عن هذه المسؤولية بحجة قلة الإمكانات، فلو طلبت من أحدهم بناء مسجد أو أي مشروع اسلامي آخر، يقول: لا أملك المال. في حين أن الأمر يتطلب بالدرجة الأولى الكلمة الطيبة والنية الصادقة، والتوكل على الله تعالى، والخلق الحسن، والإدارة الجيدة. وبعد ذلك يأتي المال.

وإذا أردنا السير على هذا النهج فعلينا الاهتمام بالجوانب التالية:

الأول: العلم

كما يرغب الإنسان بالطعام وهو غذاء جسده، كذلك يحتاج العلم، لأنه غذاء الروح. والعلم أعظم حاجة وقيمة من المال، فمن يقوم بتذكير الناس ليخلصهم من نار جهنم، ألا يُعدُّ عمله أعظم من ملايين الدولارات؟

ثانياً: الحكمة

وتهدف أن يعيش الإنسان سعيداً وناجحاً، لكن كيف نسلك طريق الحكمة؟

يقول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: [رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ عَزَّ وَجَل][1]، فالخشية والخوف

١- وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٢١.

من الله سبحانه ينميان الحكمة، أمّا التجبر والتعالي، فيمحقانها من القلب.

وقد اعتاد علماؤنا الكرام توجيه الناس نحو الخشية من الله تعالى، والخوف من معصيته وآثارها في الدنيا والآخرة.

تربية البشر مهمة الرسل

يمر الشباب بتحديات كثيرة وهم يعيشون الواقع الذي يحاول النيل منهم، لذا فهم بحاجة إلى:

أولاً: منحهم الثقة بالنفس، ليصبح الواحد منهم شخصية متميّزة وفاعلة في مجال العمل الرسالي. وبشكل عام فإن هذا الأمر ممكن، فالإنسان يملك مؤهلات هذا التحوّل، لأنه خليفة الله.

ثانياً: تقديم البرامج النافعة لحياته، فإذا تأثر بكلماتك، سوف يعطي وده لك إلى الممات، ويساعدك بلا كللٍ أو ملل.

فمن أجل بناء جيلٍ مؤمن رسالي مقاوم، علينا أن نقوم بـ:

مزيد الرجوع إلى القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام، والتي هي المنهج في تربية الرجال.

تربية الرجال، وبذلك يستمر الخط الإلهي، فـ(صالح بعد صالح).

التربية الدينية وسُنّة التكامل

أغلب الناس مؤهلون للعمل الإسلامي، غير أنهم بحاجة لإزاحة غشاوة حب النفس، والهوى، وهكذا التخلص من الآثار السلبية التي تلطخ بها الفرد بسبب الوراثة والتربية.

وهنا تكمن مشكلة بسيطة: لو كان الأفراد الذين يسعون لتغيير الواقع متفاوتين في قدراتهم، كيف لهم النجاح؟

من خلال: (التكامل). فلو حصل أن هناك من يجيد الخطابة، وآخر ينجح في التأليف، يكون الحل في جمعهم على طاولة واحدة. ليكمّل أحدهما الآخر. فقد روي

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لفُضيل: [تَجْلِسُونَ وَتُحَدِّثُونَ]؟ قال: نعم، جعلت فداك.. قال: [إِنَّ تِلْكَ الْمَجَالِسَ أُحِبُّهَا، فَاحْيُوا امْرَنَا يَا فُضَيْلُ، فَرَحِمَ اللهُ مَنْ احْيَا امْرَنَا][1].

وربما إن الإمام يحب تلك المجالس بسبب اجتماع المؤمنين، لأن ذلك يحثهم على التكامل، فمن هنا، تحدث القرآن الكريم في أربع آياتٍ عن الشورى، وذكر عشرات الآيات حول: التواصي، والتعاون، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكل ذلك يرتبط بتأثير الفرد على محيطه.

وهذا يعني سد الفراغات، فالجزء الذي لا يملكه الفرد في شخصيته، يكمله الفرد الآخر، وهكذا حصل مع الأنبياء، فالنبي موسى عليه السلام ايده الله سبحانه بهارون، لأنه أفصح منه لساناً، وكذلك أيد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإمام علي عليه السلام، وأيد الإمام الحسين عليه السلام بسيدنا العباس عليه السلام.

وبكلمة: من أجل بناء جيل ايماني، لابد من الاجتهاد في التربية الدينية، والحوزة العلمية خير من يقوم بذلك، ببيئتها المتميزة الصالحة، وبرجالها الصالحين، وبارتباطها بالثقلين: القرآن الكريم وكلمات أهل البيت عليهم السلام، وبعلمائها الربانيين المؤتمنين على الحلال والحرام.

١- قرب الإسناد، ص٣٦.

الفصل الخامس:

وصايا لطالب العلم

من[1] سمات المؤمن الرسالي هو الخوف من النهاية الحتمية، فما دامت النهاية غير معروفة الميعاد، فإن الخوف منها سيستمر مع الإنسان في كل لحظة.

من هنا فإن المؤمن يتوقى المحاذير، ويعيش بانضباط تام في حالة عالية من التقوى والخشوع لله سبحانه وتعالى!

والتقوى هو أن تمشي في العالم وفق خريطة. والمتقي في الدنيا كمن يعبر حقلاً من الألغام خلال الحرب، فبمجرد أن يتجاوز الخريطة يحتمل أن يدوس على أحدها، فيرتفع عن الأرض بضعة أمتار ويتمزق في الهواء.

ولذلك فإن الأئمة عليهم السلام كانوا يؤكدون على ضرورة الخوف من الآخرة.

دعنا نستعرض وصية الإمام علي لنجله الإمام الحسن عليه السلام، ونستلهم منها خريطة رسالية لدنيانا.

يقول الإمام عليه السلام:

[ايْ بُنَـيَّ! إِنِّ قَـدْ انْبَأْتُـكَ عَـنِ الدُّنْيَـا وَحَالِهَـا وَزَوَالِهَـا وَانْتِقَالِهَـا بِاهْلِهَـا، وَانْبَأْتُـكَ عَـنِ الْآخِـرَةِ وَمَـا أُعِـدَّ لِاهْلِهَـا فِيهَـا، وَضَرَبْـتُ لَـكَ فِيهِـمَا الْامْثَـالَ، إِنَّمَـا مَثَـلُ مَـنْ ابْـصَرَ الدُّنْيَـا كَمَثَـلِ قَـوْمٍ سَـفْرٍ نَبَـا بِهِـمْ مَنْـزِلٌ جَـدْبٌ فَامُّـوا مَنْـزِلاً خَصِيبـاً وَجَنَابـاً مَرِيعـاً][2].

حين نعرف حقيقة الدنيا

يبيّن الإمام عليه السلام أن المؤمن هو من يعرف الدنيا وحقيقتها، ويضرب لذلك مثلاً.

مثل من عرف حقيقة الدنيا كمثل قوم مسافرين رأوا مكانهم قفراً، لا ماء فيه ولا كلأ، فتحركوا باتجاه مكان آخر حيث الخصب والمياه والمراتع. ثمّ يقول:

[فَاحْتَمَلُـوا وَعْثَـاءَ الطَّرِيـقِ، وَفِـرَاقَ الصَّدِيـقِ، وَخُشُـونَةَ السَّـفَرِ فِي الطَّعَـامِ وَالْمَنَـامِ، لِيَأْتُـوا سَـعَةَ دَارِهِـمْ وَمَنْـزِلَ قَرَارِهِـمْ، فَلَيْـسَ يَجِـدُونَ لِـشَيْءٍ مِـنْ ذَلِـكَ الَـماً، وَلَا يَـرَوْنَ نَفَقَتَـهُ مَغْرَمـاً، وَلَا شَـيْئاً احَـبَّ إِلَيْهِـمْ مِـمَّا قَرَّبَهُـمْ مِـنْ مَنْزِلِهِـم][3].

١- منقول من كتاب (البعث الإسلامي) لسماحة السيد المؤلف لأنه يتناسب مع الموضوع.
٢- بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٢١.
٣- بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٢١.

انهم لا يعبؤون بأتعاب السفر، أو فراق الأحبة ويهوّنون الأمر على أنفسهم، بما ينتظرهم من راحة عندما يصلون مرامهم، وهذا مثال أهل الدنيا العارفين بحقيقتها، فإنما هي كالأرض القفر، وإنما سيجدون أمانيهم هناك في الآخرة وما هي إلّا تحمل عناء السفر ويصلون!

لماذا الغرور بالدنيا؟

يقول الإمام عليه السلام:

[وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خِصْبٍ فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدْبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ اكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا اهْوَلَ لَدَيْهِمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا هُمْ فِيهِ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ وَيَصِيرُونَ إِلَيْه].

وهذا هو مثل من اغتر بالدنيا وركن إليها ونسي الآخرة!

إنّ هذا المغتر سيفاجأ حينما يأتيه ملك الموت [فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ اسْوَدَ، قَائِمِ الشَّعْرِ، مُنْتِنِ الرِّيحِ، اسْوَدِ الثِّيَابِ، يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ وَمَنَاخِرِهِ لَهَبُ النَّارِ وَالدُّخَانِ][1] فيقبض روحه بأشد حالة.

أما المؤمن فإن الأمر مختلف تماماً معه، فملك الموت يأتيه بصورة حسنة، كصديق أو قريب، فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سُئل: يا ابن رسول الله، هل يُكرَه المؤمن على قبض روحه؟ أجاب الامام:

[لَا وَاللهِ، إِنَّهُ إِذَا اتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ لِقَبْضِ رُوحِهِ جَزِعَ عِنْدَ ذَلِكَ. فَيَقُولُ لَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ: يَا وَلِيَّ اللهِ لَا تَجْزَعْ فَوَ الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم لَانَا ابَرُّ بِكَ وَاشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ وَالِدٍ رَحِيمٍ لَوْ حَضَرَكَ، افْتَحْ عَيْنَكَ فَانْظُرْ. قَالَ: وَيُمَثَّلُ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَامِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالائِمَّةُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ عليهم السلام. فَيُقَالُ لَهُ هَذَا رَسُولُ اللهِ وَامِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالائِمَّةُ عليهم السلام رُفَقَاؤُكَ. قَالَ: فَيَفْتَحُ عَيْنَهُ فَيَنْظُرُ، فَيُنَادِي رُوحَهُ مُنَادٍ مِنْ قِبَلِ رَبِّ الْعِزَّةِ فَيَقُولُ: ﴿يَا ايَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

١- جامع الأخبار (للشعيري)، ص١٧٠.

[الى محمد وأهل بيته] **ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ راضِيَةً** [بالولاية] **مَرْضِيَّةً** [بالثواب] **فَادْخُلِي فِي عِبادِي** [يعني محمدا وأهل بيته] **وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾. فَمَا شَيْءٌ احَبَّ إِلَيْهِ مِنِ اسْتِلَالِ رُوحِهِ وَاللُّحُوقِ بِالْمُنَادِي][1].

هذا هو الموت، وعلى الإنسان أن يختار الطريقة التي يحبّ أن يتعامل بها ملك الموت معه.

منهج الإسلام في طلب العلم

يضيف الامام عليه السلام في وصيته لنجله الحسن المجتبى:

[وَقَرَّعْتُكَ بِانْوَاعِ الْجَهَالاتِ لِئَلَّا تَعُدَّ نَفْسَكَ عَالِماً، فَإِنْ وَرَدَ عَلَيْكَ شَيْءٌ تَعْرِفُهُ اكْبَرْتَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَالِمَ مَنْ عَرَفَ انَّ مَا يَعْلَمُ فِيمَا لَا يَعْلَمُ قَلِيلٌ، فَعَدَّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ جَاهِلا].

فالتقريع بأنواع الجهالات يعيد الإنسان إلى واقعه، حتى لا يتصور نفسه قد بلغ الكمال في العلم، فالغرور حجاب كثيف بين الإنسان وبين الحقائق.

والعالم هو الذي يذكر نواقصه، والأعمال التي لم يستطع أن ينجزها وليس الأعمال التي أنجزها، لكي يبقى باحثاً دائماً عن العلم ولا يغتر.

يقول الإمام عليه السلام:

[فَازْدَادَ بِمَا عَرَفَ مِنْ ذَلِكَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ اجْتِهَاداً، فَمَا يَزَالُ لِلْعِلْمِ طَالِباً، وَفِيهِ رَاغِباً، وَلَهُ مُسْتَفِيداً، وَلاهْلِهِ خَاشِعاً مُهْتَمّاً، وَلِلصَّمْتِ لَازِماً، وَلِلْخَطَإِ حَاذِراً، وَمِنْهُ مُسْتَحْيِيا).

إنَّ العلم والغرور لا يجتمعان، لأنَّ المغرور لا يخشع لعالِم، ولا يرغب في مزيد من المعرفة، ولا يهتم بمفيد، أما العارف بجهله، والطالب للاستفادة، فإنه يخشع للعلماء ويلازم مجالسهم مقتدياً بسيرتهم!

وقد لخص الإمام عليه السلام هذا الأمر في موضع آخر حيث قال:

[وَقَدْ نَبَّاكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ لَكَ نَفْسَهَا، وَكَشَفَتْ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِيَّاكَ انْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ اهْلِهَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا اهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ،

١- الكافي، ج٣، ص١٢٧-١٢٨.

يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، يَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَكَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، قَدْ اضَلَّتْ اهْلَهَا عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، وَسَلَكَتْ بِهِمْ طَرِيقَ الْعَمَى، وَاخَذَتْ بِابْصَارِهِمْ عَنْ مَنْهَجِ الصَّوَابِ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي فِتْنَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا][1].

كنت مرّة في طريق خارج المدينة فرأيت على الطريق دابّة ميتة قد تعفنّت وتفسخت، ورأيت حولها حوالي ثلاثين إلى أربعين كلباً يتنازعون عليها!

فابتسمتُ لما رأيت، وهتفت بنفسي: هذه الدنيا العفنة الزائلة، والناس يتكالبون عليها، كهذه الكلاب! قد لخصتها أمام ناظري هذه الصورة!

إنّ الزهاد يرون الدنيا كهذه الجيفة النتنة، بينما النّاس متكالبون عليها، يظنّون أنّهم يحصلون على الخير، مع العلم أن هذا ليس خيراً! فـ[مَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ، وَمَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّار][2]. كما قال الإمام الباقر عليه السلام.

يقول الامام علي عليه السلام:

[فَإِيَّاكَ يَا بُنَيَّ انْ تَكُونَ قَدْ شَانَتْهُ كَثْرَةُ عُيُوبِهَا، نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ قَدْ اضَلَّتْ عُقُولَهَا وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا رُوَيْداً حَتَّى يُسْفِرَ الظَّلَامُ، كَانْ قَدْ وَرَدَتِ الظَّعِينَةُ يُوشِكُ مَنْ اسْرَعَ انْ يَئُوب].

وهذه الكلمات من أبلغ كلمات الإمام علي عليه السلام التي يصور فيها باختصار شديد: حالة الناس العابثين اللاهين الغافلين عمّا ينتظرهم، إن جماعة منهم كالنعم المعقّلة، أي الحيوانات المربوطة، وأخرى مهملة متروكة تسرح كيف تشاء في وادٍ شائك، ولكن كما يقول عليه السلام في موضع آخر:

[النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا][3].

وهنا نشير إلى بعض الأمور التي يحتاجها طالب العلم، وهي كالتالي:

١- بحار الأنوار، ج٧٠، ص١٢٣.

٢- الكافي، ج٨، ص٢٤.

٣- عيون الحكم والمواعظ، ص٦٦، ح١٦٧٣.

أولاً: القدرة على فهم الأحداث

على طالب العلم الإحاطة بكل ما يجري حوله، ولا يبقى مغفَّلاً. وعليه أن يهيئ ذهنه لتحليل الأحداث، ليستغني عن المنصات الكاذبة التي قد يعتمد عليها كما اعتمدها بعض العوام فتشوّه رؤيته عن الواقع. ومن لا يملك ذلك بدل أن يصبح عوناً للحق، قد يصبح حرباً عليه، فهو يضرّ من حيث يطلب الخير.

ولذلك يجب على طالب العلم أنّ يطور فهمه للأحداث باستمرار.

ثانياً: الثقة بالله

الشهوة، المادة، زخارف الدنيا وزينتها، كلها تضغط على المؤمن، حتى ينجر وراءها، ليصبح من: [الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ][1].

إلّا أن طريق الخلاص مفتوحٌ، يتمثل في «الثقة بالله سبحانه» لأنه كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: [مَنْ وَثِقَ بِاللهِ آوَاهُ السُّرُورَ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ الْأُمُور][2].

وكما يتوقّى الإنسان الأمراض ليضمن سلامة بدنه، كذلك يجب أن تكون له وقاية من الشيطان، حتى لا يصيبه بسهم وسوسته، وداء نفثاته، والاستعاذة تعني طرد الشيطان، كما يقول تعالى: **﴿قُلْ اعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾**[3].

لو أعانك الرب في طرد هذا العدو؛ خَلُص طريقك من عقبة كؤود، وإنّ لم تفعل، حللت في دروب المهالك، ليزداد حالك سوءاً يوماً بعد يوم، كما عبرت الآية الكريمة: **﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾**[4].

ثالثا: كن حاسماً في قرارك

إن التردد فخٌّ خطير يمكن أن يوقع إبليسُ الإنسانَ فيه، ففي الوقت الذي يفكر فيه

١- سورة البقرة، الآية: ١٦.

٢- جامع الأخبار، ص١١٧.

٣- سورة الناس.

٤- سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

بإسهاب ويحدّثُ نفسه قائلاً: أفعل؟ لا أفعل! أفعل؟ لا أفعل!.. يأتي إبليس خلسة ليضع له (نعم) للمعصية، و(لا) للطاعة، فيترك الحق ويسقط في الباطل.

وهل مثل هذا القرار يحتاج إلى تفكير؟!

بعد الدخول في هذه المشقة - مشقة الاختيار بين الحق والباطل - تزل قدمه وهو يختار جانب الباطل، فيهوي في أسفل دركٍ من الجحيم، ومن شدّة خطورة هذا القرار أنه فصل بين الحرِ الرياحيّ، وبين عمر بن سعد (لعنه الله). فمع قرابة هذا الأخير من الإمام الحسين عليه السلام، لكنه خدع نفسه، وباع دنياه بآخرته.

بينما قال الحرّ: أخير نفسي بين الجنة والنار فوالله لا اختار على الجنّة بدلاً. وفي النهاية ختمت دنياه بالشهادة، وحاز على الآخرة.

رابعاً: الوحدة مع المؤمنين

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾[1].

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى بَعْضُهُ تَدَاعَى سَائِرُهُ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى][2].

فقوة المؤمنين وسرّ حصانتهم هو تعاضدهم وتماسكهم، وتولّيهم لبعضهم البعض. ومن هنا يجب عليهم حين تتصاعد الأزمات، أن يشدّوا أظهر بعضهم، وينبذوا الاختلاف والفرقة والحزبيات والتعصبات الجاهلية، لأنّ هذه الأساليب المقيتة تدمّر وحدتهم، وتسلب حريتهم.

ولنا في تاريخنا القريب خير شاهد على ذلك، حين تولى عبد السلام عارف الحكم في العراق، بدأ بمضايقة الشيعة واضطهادهم، غير أن حكمه لم يدم طويلاً، لأن الله سبحانه وتعالى يقصم شوكة الظالمين، فانتهى به الأمر أن يحترق في الجو، أما أخوه عبد

١- سورة النساء، الآية ١١٥.

٢- بحار الأنوار، ج٥٨، ص١٥٠.

الرحمن عارف، فقد اتعظ من تجربة أخيه، فأوقف سياسة العداء للشيعة مؤقتاً وخفف من حدّتها.

لكنّ المشكلة الحقيقية حينها لم تكن في اضطهاد الحكام، بل في الخلافات الداخلية بين المؤمنين أنفسهم، فكانوا وكأنهم سلة البيض الذي يكسر بعضه البعض الاخر، والحديث ليس عن الخلافات البسيطة، فتلك حالة طبيعية في كل مجتمع، لكن حين تتحول هذه الخلافات إلى صراعات كبيرة تحرق الأخضر واليابس فذلك خطر كبير. وغالباً ما يكون المسؤول عن تحويل المشاكل الجزئية إلى فتن كبيرة أجندات خارجية مدفوعة بأغلى الأثمان، تسعى لتمزيق المجتمع الإسلامي من الداخل، لكي يَسهُل افتراسه من الخارج، فالمسؤولية تبقى للمؤمنين أنفسهم في مراقبة ذلك ايضا.

ومن الأمثلة على ذلك، حادثة وقعت في بغداد: إذ تشاجر شخصان من طائفتين مختلفتين، كلٌ منهما يهاجم مذهب الآخر، حتى تجمهر الناس واشتعل النزاع بين الفريقين. وبعد تدخل العلماء من الجانبين للتحقيق في أصل المشكلة، تبين أن السفارة البريطانية كانت وراء القضية؛ إذ دفعت المال لهذين الشخصين لافتعال الفتنة وإشعال الصراع!

لذا يجب على المؤمنين أن لا يغفلوا عن أعدائهم طرفة عين، فلحظة واحدة قد تكون الأخيرة في حياة المجتمع المؤمن، وفي أفضل الحالات قد تفتح الباب أمام الاستعمار للتدخل والتخريب. وأي اضطرابٍ أو فتنةٍ في بلاد المسلمين، تجد خلفها أيادٍ خفية للمستعمرين.

ويُروى في ذلك أن رجلاً هندياً رأى مجموعة من الأسماك تتقاتل في بركة ماء، فتعجب من المشهد، ثم اكتشف بعد لحظات أن رجلاً أجنبياً كان جالساً على حافة البركة يُلقي شيئاً ليثيرها. عجباً! حتى الأسماك لم تسلم من هؤلاء، فصار ذلك مثلاً.

ولقد أكد ربّنا سبحانه وتعالى كثيراً على ضرورة الوحدة، والاجتماع مع المؤمنين واتباع سبيلهم، يقول: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ**

سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[١]، فالوحدة ضرورة تجنّباً للفرقة ثمّ التمزق ثمّ الهلكة، فكل من يخالف سبيل المؤمنين، يعرض نفسه للسقوط، كما تسقط الورقة الصفراء في الخريف. لكن المؤمنين حين يجتمعون يكونون كالبنيان المرصوص، لا يهتزّ لو اهتزّت الجبال.

وهذا الاجتماع يجب أن يكون على نوعين:

الأول: اجتماع في العقول، فقد جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: [مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا][٢]. فأول ما على المؤمن فعله حين يريد الإقدام على أي عمل، هو معرفة آراء المؤمنين، لتتبلور أفكاره وتكتمل رؤيته، ذلك لأن الإنسان لا يملك رؤية كاملة.

الثاني: اجتماع القلوب، كما جاء في الحديث عن إمامنا الحجّة: [لَو انَّ اشْيَاعَنَا وَفَّقَهُمْ اللهُ لِطَاعَتِهِ عَلَى اجْتِمَاعٍ مِنَ الْقُلُوبِ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ عَلَيْهِمْ لَمَا تَاخَّرَ عَنْهُمُ الْيُمْنُ بِلِقَائِنَا، ولَتَعَجَّلَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ بِمُشَاهَدَتِنَا، عَلَى حَقِّ الْمَعْرِفَةِ وصِدْقِهَا مِنْهُمْ بِنَا، فَمَا يَحْبِسُنَا عَنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَّصِلُ بِنَا مِمَّا نَكْرَهُهُ ولَا نُؤْثِرُهُ مِنْهُمْ، واللهُ الْمُسْتَعَانُ وهُو حَسْبُنَا ونِعْمَ الْوَكِيلُ][٣].

خامساً: القدوة والاقتداء

كما يبحث المؤمن عن مَثَلٍ أعلى ليقتدي به، يطمح أن يكون هو قدوة لغيره من المؤمنين ايضا، فلذا تراه يطلب من الله سبحانه أن يجعله من قادة الأمّة، كما جاء في الدعاء: [اللهُمَّ إِنَّا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ، تُعِزُّ بِهَا الْإِسْلَامَ وَاهْلَهُ، وَتُذِلُّ بِهَا النِّفَاقَ وَاهْلَهُ وَتَجْعَلُنَا فِيهَا مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى طَاعَتِكَ، وَالْقَادَةِ إِلَى سَبِيلِكَ، وَتَرْزُقُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ][٤].

١- سورة النساء، الآية ١١٥.
٢- وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٤٠.
٣- الاحتجاج على أهل اللجاج ج٢، ص ٤٩٩.
٤- مصباح المتهجد، ج٢، ص٥٨١.

الفهرس

مقدمة ٥

كلمة البدء ٧

الفصل الأول: ملامح الشخصية الرسالية ٩

التكامل هدف الخلق ١٠

أولا: الروح الإيمانية ١٢

١- قيام الليل ١٢

قيام الليل وتقوية الإرادة ١٣

٢- مُدخل صدق ١٤

ثانياً: البصيرة النافذة ١٦

الخوف من الله مفتاح البصيرة ١٧

ثقافة القطيع تمنع البصيرة ١٨

الوعي بالواقع ١٩

ثالثاً: الأخلاق الفاضلة ٢٠

رابعاً: الاستقامة على الطريق ٢٢

١- تجنّب الظالمين ٢٣

٢- إقامة الصلاة ٢٣

٣- الصبر ٢٤

٤- التواصي ركيزة الاستقامة ٢٤

خامساً: المسؤولية وثقافة التصدّي ٢٦

بين التصدّي والتبرير ٢٨

سادساً: ثقافة الاستعداد ٣٠

اغتنام فترات الرخاء ٣٠

الاستعداد المتناسب مع الزمان ٣١

الاستعداد بعلاج السلبيات ٣٢

الاجتهاد ضرورة للاستعداد ٣٣

الفصل الثاني: مسؤوليات رسالية ٣٥

الإعلام: كلمةٌ طيبة، أو كلمةٌ خبيثة ٣٨

الكلمة الطيِّبة سلاحُ المؤمن ٤١

الكلمة لا تموت ٤٢

كيف نصدح بالكلمة الطيبة؟ ٤٤

أولاً: التسلح بالقوة الإيمانية ٤٤

ثانياً: الخشية من الرب.................................٤٤
ثالثاً: الاستفادة من الوسائل..............................٤٥
رابعاً: بذل الجهد..٤٦
خامسا: الصمود والتصدي ٤٦
المؤمن ومسؤولية الإصلاح ٤٨
المصلح أمان المجتمع ٤٩
لو خُلِيَت قُلِبَت!..٥٠
لنكن منازلَ للرحمة..٥١
الفصل الثالث: دور الحوزات العلمية.........................٥٥
في الإصلاح والنهضة ٥٥
الأعداء ومواجهة الحوزات.....................................٥٨
مكامن القوّة في الحوزة العلمية ٦٠
أولاً: التوكل على الله..٦٠
الحذر من تثبيط العزائم..٦٢
ومن يتوكَّل على الله فهو حسبه ٦٣
الحوزة العلمية والتوكّل على الله تعالى ٦٤
ثانياً: العمل المضاعف...٦٥
ثالثاً: الاقتداء بالصالحين ٦٦
الفصل الرابع: الحوزة العلميةوالجيل الرسالي ٦٩
اغتنام مرحلة الشباب ٧٢
عناصر بناء المجتمع ٧٣
الأول: العلم ٧٣
ثانياً: الحكمة ٧٣
تربية البشر مهمة الرسل.......................................٧٤
التربية الدينية وسُنّة التكامل...................................٧٤
الفصل الخامس: وصايا لطالب العلم.........................٧٧
حين نعرف حقيقة الدنيا ٧٨
لماذا الغرور بالدنيا؟..٧٩
منهج الإسلام في طلب العلم....................................٨٠
أولاً: القدرة على فهم الأحداث ٨٢
ثانياً: الثقة بالله..٨٢
ثالثا: كن حاسماً في قرارك.....................................٨٢
رابعاً: الوحدة مع المؤمنين.......................................٨٣
خامساً: القدوة والاقتداء..٨٥